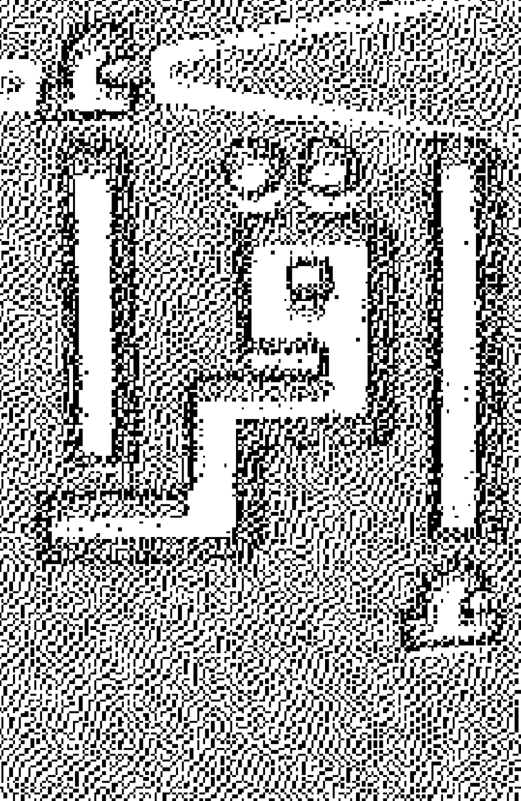


الأمثال في القرآن

محمود بن الشريف

دار المعارف بمصر

الأمثال في القرآن

محمود بن الشريف

الأمثال في القرآن

اقرأ ٢٦٥
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٦٥ — الطبعة الثالثة

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج٠ع٠م

« ولقد صرّفنا للناس فى هذا القرآن مِن كلّ مثل »

سورة الإسراء (من آية ٨٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

من سنن الهدى الإسلامى مراعاة النفسيات..

فهناك نفس متينة مكينة ، ونفس هشة قميئة ، وثالثة كافرة فاجرة، وأخرى مارقة ماجنة . . ألوان من نفسيات متباينة متغايرة، لكل منها عند القرآن علاج خاص .

فالنفوس الخيرة المؤمنة ، التى تزيدها الدعوة استمساكاً بعقيدتها، وإيماناً على إيمانها ، وتقريراً لمفاهيم العقيدة وتثبيتاً لمبادئها ، وتوكيداً لتعاليمها . . هذه النفوس يربيها القرآن تربية خاصة ؛ تربية مثالية قوية، تتواءم مع قوتها ، وتتلاءم مع إيجابيتها .

والنفوس الهشة الضحلة الإيمان الضعيفة البنيان يحصنها القرآن بما يقدم لها من بالغ كلمه وبارع حكمه ورائع مثله وجميل إرشاده وجليل توجيهه ، وتظل تتقبل وتزدرد حتى تنفعل وتتشبع .. وحتى يستقيم عودها ويتكامل بنيانها

مزاج من نصح ، وأمشاج من هداية ، ومقادير من أدوية تقدم لكل نفس بمعيار وقدر ، فما يصلح لإحداها لا تنتفع به أخرى ، وما ترغب فيه نفس ترغب عنه أخرى . . وما يقنع نفساً مطمئنة تعافه نفس جامحة شموس .

ومن أجل هذا كانت الأمثال فى القرآن لوناً من ألوان الهداية الإلهية تغرى النفوس على الخير ، أو تحضها على البر ، أو تمنعها من الإثم أو تدفعها إلى فضيلة ، أو تدفع عنها شائبة أو تمنع نقيصة .

ومن أجل هذا أيضاً تناولت الأمثال القرآنية مجالات عدة ؛ فمثلت الإيمان ، ومثلت بالكفر ، وفضحت النفاق وحضت على الإنفاق ونادت بالخير ونددت بالشر ، وصورت الطيب والخبيث والصالح والطالح ، وغير ذلك مما أشادت به ، أو أشارت إليه .

ثم نجد الأمثال قد أبرزت المعقول فى صورة مجسمة ، وألبست المعنوى ثوب المحسوس ، وفصلت المجمل وأوضحت المبهم ؛ لتهذب بذلك الطبائع وتقلم الغرائز الشريرة ، وتخفف من غلواء النفوس ، وتحد من ضراوتها وتطامن من كبريائها وغرورها .

وفى ذلك يقول الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى كتابه « أسرار البلاغة » :
« . . واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى

أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً ؛ فإن كانت مدحاً كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفوس وأعظم ، وأهزّ للعطف وأسرع للإلف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعةً للمادح ، وأقضى له بغرر المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر .

وإن كان ذما كان مسه أوجع وميسمه ألذع ووقعه أشد ، وحدّه أحد . .

وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر . .

وإن كان افتخاراً كان شأوه أبعد ، وشرفه أجدّ ، ولسانه ألدّ . .

وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسلّ ، ولغرب الغضب أفلّ ، وفي عقد العقود أنفث ، وعلى حسن الرجوع أبعث .

وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ في

التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يجلى الغيابه ، ويبصر الغاية ، ويبرئ العليل ويشفى الغليل »

ويقول العلامة أبو السعود فى تفسيره : « . . . والتمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل ، واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه ، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي ، وقمع سورة الجامح الأبى ، كيف لا ؟ وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية ، وإبراز لها فى معرض المحسوسات الجلية ، وإبداء للمنكر فى صورة المعروف ، وإظهار للوحشى فى هيئة المألوف » .

وقال ابن المقفع : إذا جعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق ، وآنق للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث .

وقال إبراهيم النظام : يجتمع فى المثل أربعة لا تجتمع فى غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ؛ فهو نهاية البلاغة .

* * *

وقد راع المعاندين والمكذبين هذا النمط من الأسلوب القرآنى ، وذلك اللون من التربية الإلهية ، واستنكروا أن يضرب الله الأمثال ، زاعمين أن الله أعلى من ذلك وأجل . . ثم تغالوا فى استنكارهم وتساءلوا متعجبين :

أى قدْر للذباب والعنكبوت حتى يضرب الله بها الأمثال ؟ !

وجادلوا ، محتجين بأن الله عظيم ، ولن يتضمن كلامه إلا كل عظيم . .

ويردّ عليهم القرآن بأن المولى سبحانه لا يرى من النقص أن يضرب مثلا بالبعوضة ، أو بأصغر منها حجماً ؛ فالمثل حق يدعو إلى حق يعترف به المؤمنون فيزيدهم تمسكاً بإيمانهم ، وينكره المارقون الجاحدون فيزيدهم غواية على غوايتهم ، « إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا . يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ، ومايضل به إلا الفاسقين . . . »[1]

* * *

وما الصور التى رآها رسولنا الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه فى رحلته الإلهية عند معراجه إلى السموات العلى إلا أمثال محسوسة ملموسة وصور مصغرة جسمت شرائح وقطاعات حادت عن الجادة فى حياتها الأولى ، فكان مآلها هذا المصير المهين القاتم . .

---

(١) آية ٢٦ من سورة البقرة .

وكانت هذه الصور أمثلة حية كرّم الله نبيه برؤيتها، وربّاه بها وأدبه ، وصلى الله على الذى قال : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »

والله الموفق ، وهو المعين .

محمود بن الشريف

من سورة البقرة :

المنافقون

نرى القرآن فى بعض أمثاله يتغلغل إلى الأعماق . . أعماق المنافقين ؛ فيكشف عن منازعهم ونوازعهم ، ويبين خوالجهم ونبضاتهم ، ويميط اللثام عن أدق حالاتهم وأحوالهم ، ويلون سلوكهم ومشاربهم عندما يضرب لذلك أروع التشبيهات وبالغ الصور .

فها هو ذا — فى أول سورة من سوره الطوال سورة البقرة — يحلل اتجاهاتهم ، ويرسم لهم بأسلوبه المشرق الأخاذ صورة تنبض بما يجيش فى أعماقهم ، وتومئ إلى ما حاولوا الحفاظ عليه ، وتفضح ما خفى من نقائصهم ونقائضهم

(وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم[1] قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون [١٥] الله

---

(١) انفردوا بإخوانهم فى الكفر .

يستهزىء بهم ويمدّهم فى طغيانهم يعمهون[١] [١٦] أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين [١٧] مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً[٢] ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون [١٨] صمٌ بكمٌ عمى فهم لا يرجعون [١٩]) .

هذا لون من المنافقين أتاهم الله ديناً فيه هداية ، وشريعة فيها صلاح وفلاح ، فآمنوا إيماناً ظاهرياً ، وعطلوا عقولهم ، وألغوا تفكيرهم ، ولم ينتفعوا بما جاءهم ، ولم يقتفوا نهج من سلفهم ، وكانوا أمة وحدهم ؛ فابتكروا لأنفسهم منازع واتجاهات انحرفت بهم عن السنن الظاهر والحجة الواضحة ، ولم يكتشفوا أنفسهم والهدى القائم بينهم والخير السائد فيهم ، والنور الغامر لمن حولهم من المؤمنين الخالصين . . فعموا عن كل ذلك ، وصموا ، وضربوا صفحاً عن هدى الله ، وجعلوا بينهم وبين النور حجاباً منيعاً وسداً صُلباً ؛ فعاشوا بمعزل عن الحق وبمنأى عن الضياء ، يهيمون فى ديجور من الضلال ، وفى متاهة الباطل ، لم ينعموا بما نعم به مخلصو المؤمنين من خير ، ونور ، وهدى .

---

(١) يعمهون : يتحيرون .

(٢) استوقد ناراً : طلب وقودها .

مثل هؤلاء الصم البكم العمى فى نفاقهم كمثل الذى أوقد ناراً لينتفع بها فى ليله الحالك فلما أضاءت النار ما حوله ، فرأى الضياء والسناء ، سرعان ما أطفأها مطر شديد ذو ريح عاصف أخمد أوارها وبدّد لهيبها . . فتحيرّ . . وتخبط فى الظلمات لا يدرى ما يتجنبه ولا ما يتقيه !!

(أو كصيّب[1] من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين [٢٠] يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله على كل شىء قدير [٢١]).

وهذا صنف آخر من المنافقين ، كان فيهم بقية من رجاء ورمق من حياة . . أصاخوا بحواسهم ومشاعرهم إلى صوت الإيمان الحق ، فاستجابوا له وآمنوا به . . ثم ساروا فى طريق الله ، يقتبسون أحياناً من نور التعاليم الإلهية ، وتضىء سبيلهم معالم الشريعة ونور الحقيقة .. ويسيرون خطوات ثم تتهاوى أقدامهم وتتعثر خطاهم ، وتعشى بصائرهم وتزيغ أبصارهم وينتكسون عندما يحكمون عقولهم ، وتطغى عليهم تقاليد موروثة ،

---

(١) الصيب : المراد به المطر والسحاب .

وتعتلج فى نفوسهم رواسب عفنة فتهيج وتحيد بهم عن الجادة، وتنحرف بهم عن الصراط المستقيم .

يمثل القرآن حالة هذا الصنف الذى آمن ثم نكص ، والذى انتفع آونة بإسلامه ثم آض إلى ما كان عليه بحال قوم كانوا يسيرون فى مهمه متسع ، وفى فلاة فسيحة يلفهم فيها ظلام الليل الحالك فوقفوا حيث هم يتلمسون النجاة ولا سبيل إليها . . !!

ثم نزل بهم مطر غزير فيه رعد وبرق وصواعق .. وقصف الرعد ولمع البرق ودوّت الصواعق . . وبين دفقات الخوف ودفعات الرجاء يمشون خطوات فى ضوء البرق الخاطف. . ثم يذهب البرق ويذهب معه الضوء ويطبق عليهم الظلام وتحيط بهم العتمة فيقفون فى مكانهم ويقيمون على حيرتهم ومخاوفهم مجترين أوهامهم وضلالاتهم .

وأظهر هذان المثلان للمؤمنين أن المنافقين فى كل عصر وآن متفاوتون، ليسوا على شاكلة واحدة فى الزيغ والمروق والخروج على المحجة والتعاليم ؛ منهم من استقى من نبع الإيمان الصافى ثم ارتد إلى الوحل يعبّ من الماء الراكد الآسن . . ومنهم من ظل هيمان صادياً يسدر فى غوايته ويهيم فى ضلاله بعد أن ازورّعن المنهل العذب ، وهو منه جدّ قريب . .

وإلى هذا يشير الأستاذ الامام محمد عبده فى تفسيره فيقول :

« ضرب الله تعالى لهذا الصنف فى مجموعه (يقصد المنافقين فى كل عصر وزمان) مثلين ، ينبئان بانقسامه إلى فريقين ، خلافاً لما عليه أكثر التفاسير فى أن المثلين لفريق واحد، وأن معناهما وموضوعهما واحد ..

(الأول) من أتاهم الله ديناً وهداية عمل بها سلفهم فجنوا ثمرها ، وصلح حالهم بها ، أيام كانوا مستقيمين على الطريقة ، آخذين بإرشاد الوحى ، واقفين عند حدود الشريعة ، ولكنهم انحرفوا عن سنن سلفهم فى الأخذ بها ظاهراً وباطناً ، ولم ينظروا فى حقائق ما جاءهم ، بل ظنوا أن ما كان عند سلفهم من نعمة وسعادة إنما كان أمراً خصوا به ، أو خيراً سيق إليهم ، لظاهر قول أو عمل امتازوا به عن غيرهم ممن لم يأخذ بدينهم ، وإن كان ذلك العمل لم يخالط سرائرهم ولم تصلح به ضمائرهم ، فأخذوا بتقاليد وعادات لم تدع فى نفوسهم مجالا لغيرها ؛ ولذلك لم يتفكروا قط فى كونهم أحرى بالتمتع بتلك السعادة والسيادة من سلفهم ؛ لأن حفظ الموجود أيسر من إيجاد المفقود ، بل لم يبيحوا لأنفسهم فهم الكتاب الذى اقتدى من قبلهم بما فيه من شموس العرفان ونجوم الفرقان ؛ لزعمهم أن فهمه لا يرتقى إليه إلا أفراد من رؤساء الدين يؤخذ بأقوالهم ما وُجدوا ،

---

(١) ص ١٦٨ جـ ١ من تفسير المنار .

وبكتبهم إذا فقدوا ؛ فمثل هذا الفريق من الصنف المخذول فى فقده لما كان عنده من نور الهداية الدينية ، وحرمانه من الاهتداء بها بالمرّة ، وانطماس الآثار دونها عنده مثل من استوقد ناراً . . .

والوجه فى التمثيل : أن من يدعى الإيمان بكتاب نزل من عند ربه قد طلب بذلك الإيمان أن توقد له نار يهتدى بها فى الشبهات ، ويستضىء بها فى ظلمات الريب والمشكلات ، ويبصر على ضوئها ما قد يهجم عليه من مفترسة الأهواء والشهوات ، فلما أضاءت ما حوله بما أودعته من الهدى والرشاد ، وكاد بالنظر فيها يمشى على هداية وسداد ، هجمت عليه من نفسه ظلمة التقليد الخبيث وعصب عينيه شيطان الغرور فذهب عنه ذلك النور وأطبق عليه جوّ الضلالة ، بل طُفِئ فيه نور الفطرة ، وتعطلت قوى الشعور بما بين يديه ، فهم بمنزلة الأعمى الأصم الذى لا يبصر ولا يسمع .

وأما الفريق الثانى : فقد ضرب الله له المثل فى قوله : أو كصيب من السماء . وهو الذى بقى له بصيص من النور ، فله نظرات ترمى إلى ما بين يديه من الهداية أحياناً ، ولمعانى التنزيل لمعانٌ يسطع على نفسه الفينة بعد الفينة ، ويأتلق فى نظره الحين بعد الحين ، عندما تحركه الفطرة أو تدفعه الحوادث للنظر فيما بين يديه ، ولكنه من التقاليد والبدع فى ظلمات حوالك ، ومن الخبط فيها على حال لا تخلو من المهالك ، وهو فى تخبطه

يسمع قوارع الإنذار الإلهى ، ويبرق فى عينيه نور الهداية، فإذا أضاء له ذلك البرق السماوى سار . . وإذا انصرف عنه بشبه الضلالات الغرارة قام وتحيرّ .. لا يدرى أين يذهب !! ثم إنه ليعرض عن سماع نذُر الكتاب ودعاة الحق كمن يضع أصبعيه فى أذنيه حتى لا يسمع إرشاد المرشد ولا نصح الناصح ، يخاف من تلك القوارع أن تقتله ، ومن صواعق النذر أن تهلكه .

هذا هو شأن فريق هذا الصنف بما يشير إليه المثلان إجمالا . . »

* * *

وبعد أن عددت آيات سورة الحشر الصفات النفسية للذين نافقوا ، وكشفت موقفهم العدائى من الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته ، وإغراءهم اليهود على قتال المسلمين ، وبعد أن أبانت موقفهم السلبى إزاء نصرة المؤمنين ، ودللت على جبنهم وخورهم وتفرق قلوبهم ورهبتهم من المسلمين مثّلتهم — فى سوء عاقبتهم ومصيرهم — بكفار بدر الذين ذاقوا وبال أمرهم فى الدنيا والآخرة ؛ فى الدنيا : على يد المسلمين بالتقتيل والتنكيل ، وفى الآخرة : بعذاب الله الأليم الشديد .

ثم مثّلت المنافقين فى خداعهم وإغرائهم اليهود على القتال ، وتنصّلهم منهم بعد الهزيمة بالشيطان الذى يظل يبذل كل ما فى جعبته

من إغراء للمرء حتى يكفر ثم يتبرأ منه فى النهاية ، ويتركه يجتر حسرته وندامته .

(ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون [١١] لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار[1] ، ثم لا ينصرون [١٢] لأنتم أشدُّ رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون [١٣] لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصّنة ، أو من وراء جدُر ، بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون [١٤] كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم[2] ولهم عذاب أليم [١٥] كمثل الشيطان إذ قال للإنسان

---

(١) ليولن الأدبار : لينهزمن .

(٢) وبال أمرهم : سوء عاقبتهم .

اكفر ، فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين [١٦] فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين [١٧]) .

المقلّدون

التقليد : تعطيل لنعمة العقل ، وعقل لموهبة الإدراك !!

والمقلدون الذين ألغوا مداركهم وأفهامهم ؛ فلم يتفكروا فى خلق السموات والأرض ، ولم يتوصلوا ببحثهم واستقرائهم إلى الاعتقاد الجازم والإيمان المكين ، والذين صموا عن سماع دعوة الحق سماع تدبر وتفهم ، هؤلاء هم السلبيون مسلوبو المشيئة والتصرف ، الذين دعاهم داعى الله إلى ما أنزل الله فكان قصاراهم أن قالوا : لنا فى آبائنا قدوة وأسوة ، فلن نحيد عن معتقداتهم ، ولن نخرج عن سننهم !!

هؤلاء المقلدون مثلهم القرآن بالسوائم والبهائم تطيع صيحات راعيها من غير تفكير فى مدلولاتها الوضعية ، لا تفهم أوامره ، ولا تفقه نواهيه ولا تعقل صيحاته ونداءاته ، بل تسمع أصواتاً منه اعتادت عليها... تدعى بصوت فتأتى وتقبل ، وتصرف بآخر فتدبر وتعود وفى ذلك يقول القرآن:

(ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق[1] بما لا يسمع إلا دعاءً ونداء ، صمٌ بكم عمى فهم لا يعقلون [١٧٢آ]) .

---

(١) ينعق : يصوت على غنمه .

تربية وتوجيه للمسلمين

الشدائد محك الرجولة ومجال البطولة ، والتجارب بوتقة تصهر خبث النفس وتظهر الشخصية ناضجة مصقولة متكاملة ، والأحداث تربى العزائم الخائرة وتوجه النفسية الهشة الهامشية إلى ما فيه تماسكها وصلابتها وصلاحيتها .

والمؤمنون الصادقون كانوا فى بدء الدعوة الإسلامية قلة مستضعفين تتناوشهم الخطوب ، وتزعزع إيمانهم الحوادث ، ولا سيما حديثو العهد منهم بالإيمان . فاقتضت حكمة الله من أجل هذا أن تقدم لهؤلاء المستضعفين وقوداً يستمدون منه القوة ، وزاداً يستعينون به على تمكين العقيدة وتثبيت مفاهيمها ؛ حتى تجد فى نفوسهم أرضاً خصبة تنبت فيها وتزهر .

من أجل هذا اتجهت بعض آيات القرآن إلى ضرب الأمثلة للمؤمنين ، تخبرهم أن الابتلاء ليس بمقصور عليهم وحدهم ، وأن المؤمنين السابقين أوذوا فى سبيل عقيدتهم ، وأخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ونزل بساحتهم من العناء والإيذاء والمحن والفتن والبأساء والجهد ما كان فوق الطاقة والجهد ؛ وما بذلوا فى سبيل مدافعته ومكافحته الكثير من جهدهم وجهودهم ،

وما زادهم ذلك كله إلا إيماناً فوق إيمانهم وتسليماً بسلامة جهادهم وأهدافهم : « الم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ، وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم . فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين »[١] « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين »[٢] « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور »[٣] .

« وليبتلى الله ما فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم[٤] »

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ؛ مستهم البأساء[٥] والضراء[٦] ، وزلزلوا[٧] ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب [٢١٥]) »

---

(١) أول سورة العنكبوت .
(٢) آية ١٤٣ من سورة آل عمران .
(٣) آية ١٨٦ من سورة آل عمران .
(٤) آية ١٥٤ من سورة آل عمران .
(٥) البأساء : شدة الفقر . (٦) الضراء : المرض .
(٧) زلزلوا : أزعجوا إزعاجاً شديداً .

آيات وأمثال من تربية وتوجيه تشدّ العزم وتصقل الروح وتقوّى الإرادة ، وتقوّم النفس . . نفس المؤمن الذى علم أن ما يعانيه مؤمنو اليوم لا يقاس بما قاساه المؤمنون السابقون ، وأن الابتلاء تمحيص نهايته فوز ، واختبار عاقبته صلاح وفلاح .

ولا جرم ، فالمؤمنون أصحاب رسالة وأهداف ؛ لذا كانت تبعاتهم أكثر ، ومسئولياتهم أخطر . والحفاظ على ذلك كله يستلزم المزيد من المكابدة والمجاهدة والمجالدة والمغالبة .

القدرة على البعث

قضية البعث قضية قديمة جديدة . . لها أنصارها ولها خصومها فى كل وقت وحين .. خصومها من هؤلاء الذين أنكروا قضية الإيمان ولم يعترفوا بالألوهية ، من هؤلاء الطبيعيين والدهريين الذين قالوا : إنْ هى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر !!

ومن هؤلاء الذين قالوا قديماً : « أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون[1] » ومن هؤلاء الشيوعيين والوجوديين والماديين فى عصرنا الحاضر الذين لا يعترفون إلا بالمادة ، ولا يحسون إلا وجودها ، والذين يحصمون الروحية ويفتئتون عليها ويتطاولون على أنصارها وأهلها . .

ومن هؤلاء الذين غرّتهم قوتهم وتقدمهم فى ميدان العلم وغزو الفضاء فقالوا ، وهم يجوبون بصواريخهم وقذائفهم فى دنيا السماء ، قالوا ساخرين مستنكرين مستكبرين : أين الله ؟ !

وكان من الطبعى أن يشحذ القرآن أسلحته ليحارب بها المنكرين فى هذا الميدان ، وأن يقدّم من البراهين والأدلة والحيثيات ما يجلو هذه

---

(١) آية ١٦ من سورة الصافات .

القضية ، وما يجعل الحكم فيها حاسماً قاطعاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يرتاب فيه إلا منْ ختّم الله على قلبهْ وسمعه ، وغطّى على بصره وبصيرته

وهذا مثل قرآنى يتضمن حيثية مادية مفحمة مقنعة ، ودليلا ملموساً يناصر قضية البعث ويظاهر دعوى النشور :

(أو كالذى مرّ على قرية ، وهى خاوية على عروشها[1] ، قال : أنّى[2] يحيي هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، قال : كم لبثت ، قال لبثت يوماً أو بعض يوم . قال : بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه[3] ، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر العظام كيف ننشزها[4] ثم نكسوها لحماً فلمّا تبين له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير [٢٥٩]) .

---

(١) خاوية على عروشها : ساقطة على سقوفها .
(٢) أنى : كيف .
(٣) لم يتسنه : لم يتغير .
(٤) ننشزها : نركب بعضها فوق بعض .

ويعقب الترمذى على هذا المثل[1]فيقول : « أمر الله هذا الذى تحيرت نفسه أن ينظر إلى حماره كيف أحياه الله ، فأراه بما حضره ما غاب عنه »

(وإذ قال إبراهم : رب ، أرنى كيف تحيى الموتى ، قال : أولم تؤمن ؟ قال : بلى[2] ، ولكن ليطمئن قلبى ، قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن[3] إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن[4] ، يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم [٢٦٠]) .

ويعلق الفخر الرازى على هذه القصة قائلا : والغرض منها ذكر مثال محسوس فى عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة .

---

(١) فى مخطوطته ص ٩٢٧ المجلد الثانى .
(٢) بلى : نعم .
(٣) فصرهن : أملهن .
(٤) أدعهن : نادهن .

الإنفاق

القرآن يعلم حرص النفوس على المال وتكالبها على جمعه وله ، وسعيها فى الحصول عليه بكافة الوسائل والسبل ، ويعلم أيضاً شحها فى الإنفاق على الغير وتقتيرها فى البذل وبخلها فى العطاء فى سبل الخير ، فقدم لها علاجاً نفسياً تبلور فى أن النفقة فى أوجه الخير والبر والصالح العام تضاعف يوم القيامة أضعافاً كثيرة ، وأن الإنفاق فى سبيل الله هو قرض لربها الغنى الكريم المحسن يكافئ عليه فى الدنيا ويؤديه أضعافاً مضاعفة يوم الجزاء . فاستل بذلك من النفوس حرصها ، وطمأنها عندما ضاعف لها الأجر الأخروى وأجزل لها العطاء يوم الجزاء ، ودفعها بذلك العوض المغرى المجزى إلى البذل بسماحة وطيب خاطر وأريحية .

ووضع القرآن بهذه الأمثلة الإلهية الحاضة على الإنفاق والحاثة على البذل أول لبنة فى صرح التكامل الاجتماعى والتكافل الإنسانى :

١ ــ الإنفاق فى سبيل الله

(مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت

سبع سنابل فى كلّ سنبلة مائة حبّة والله يضاعف لمن يشاء والله واسعٌ عليم [٢٦١] الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يُتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى(١) لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون [٢٦١] قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم [٢٦٣]) .

ب ـ الرياء يبطل ثواب العمل والأذى يحبط أجر الصدقة

(يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذى ينفق ماله رئاء(٢) الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان(٣) عليه تراب فأصابه وابل(٤) فتركه صلداً(٥)

(١) المن : تعداد النعم على من أنعم عليه ، والأذى التطاول عليه بسبب ما أنعم عليه .

(٢) رئاء الناس : مرائياً الناس .

(٣) صفوان : حجر أملس .

(٤) وابل : مطر غزير .

(٥) صلداً : أملس نقياً من التراب .

لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين [٢٦٤]) .

الرياء مرض من أمراض المجتمع يدل على انهيار فى الشخصية وجبن فى الأخلاق ، وبعد عن الوضوح ، وفقر فى الشجاعة الأدبية . وطريق ملتو يسلكه كل متلون مخادع ؛ ليصل بوساطته إلى منفعة ذاتية أو كسب شخصى حتى ولو أهدر إنسانيته وأودى بكرامته وعزته وأنفته .

وتقاليدنا الإسلامية تحفظ على الأناسى كرامتهم وإنسانيتهم ، وها هو ذا القرآن عندما أوصى بتقديم الصدقة إلى مستحقيها أوصى فى الوقت نفسه بأن يحافظ المتصدق على شعور المستحق وإحساسه ، والإبقاء على كرامته وماء وجهه ، فلا تقدم الصدقة إليه مشفوعة بمن ، أو مصحوبة بأذى عاجل أو آجل . . وإلا بطل ثوابها كما يبطل الرياء ثواب العمل .

حـ ـ الإنفاق المثالى

وقد صوره المثل القرآنى الآتى بأنه هو الذى يرتكز على دعائم من الإخلاص والتقرب إلى الله ، وتثبيت النفس على الإيمان ، كما صور أن هذا الإنفاق وإن جل أو قل فثوبته جلى وثوابه دائم

(ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنَّة [١] بربوةٍ [٢] أصابها وابلٌ فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل [٣] والله بما تعملون بصير [٢٦٥]).

يقول صاحب المنار [٤] : « . . ووجه الشبه عندى أن المنفق ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفسه هو فى إخلاصه وسخاء نفسه ، وإخلاص قلبه كالجنة الجيدة التربة الملتفة الشجر العظيمة الخصب فى كثرة برّه وحسنه ؛ فهو يجود بقدر سعته ، فإن أصابه خير كثير أغدق ووسع فى الإنفاق ، وإن أصابه خير قليل أنفق منه بقدر ، فخيره دائم وبرّه لا ينقطع ؛ لأن الباعث عليه ذاتى . لا عرضى كأهل الرياء وأصحاب المنّ والإيذاء . فالوابل والطلّ عبارة عن سعة الرزق وما دون السعة » .

د ـ عاقبة الرياء والإيذاء

ثم تمضى الآية الشريفة بعد تبيان ذلك كله فتقول :

---

(١) جنة : حديقة .
(٢) بربوة : بمكان مرتفع .
(٣) طل : مطر ضعيف .
(٤) ص ٦٨ جـ ٣ من تفسير المنار .

(أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبرُ وله ذرية ضعفاء، فأصابها إعصار [١] فيه نار فاحترقت... [٢٦٦]) .

وفى تفسير ذلك المثل يقول الطبرى [٢] : «إن صاحب الجنة (البستان) أصابه الكبر (التقدم فى السن) وله ذرية ضعفاء : صغار أطفال ، فأصاب الجنة إعصار فيه نار فاحترقت ، يعنى بذلك : أن جنته تلك أحرقتها الريح التى فيها النار فى حال حاجته إليها وضرورته إلى ثمرتها بكبره وضعفه عن عمارتها . وفى حال صغر ولده وعجزه عن إحيائها والقيام عليها ، فبقى لا شىء له ، أحوج ما كان إلى جنته وثمارها بالآفة التى أصابتها من الإعصار الذى فيه النار .

فكذلك المنفق ماله رئاء الناس أطفأ الله نوره وأذهب بهاء عمله وأحبط أجره حتى لقيه وعاد إليه أحوج ما كان إلى عمله حين لا مستعتب له ولا إقالة من ذنوبه ولا توبة ، واضمحل عمله كما احترقت الجنة التى وصف ــ جل ثناؤه ــ صفتها عند كبر صاحبها وطفولة ذريته أحوج ما كان إليها فبطلت منافعها عنه .

(١) إعصار : ريح شديدة .
(٢) ص ٥٤٣ جـ ٥ .

وهذا المثل ضربه الله للمنفقين أموالهم رئاء الناس . . هذا مثل لنفقة الرياء إنه ينفق ما له يرائى الناس به فيذهب ماله وهو يرائى ، فلا يأجره الله فيه فإذا كان يوم القيامة واحتاج إلى نفقته وجدها قد أحرقها الرياء فذهبت ، كما أنفق هذا الرجل على جنته حتى إذا بلغت وكثر عياله واحتاج إلى جنته جاءت ريح فيها سموم فأحرقت جنته ، فلم يجد منها شيئاً ، فكذلك المنفق رياء !! سأل عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : فيم ترون أنزلت : « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب » ؟ فقالوا : الله أعلم . فغضب عمر . فقال : قولوا « نعلم » أو « لا نعلم » !! فقال ابن عباس : فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين . فقال عمر : قل يا ابن أخى ولا تحقر نفسك . قال ابن عباس : ضربت مثلا لعمل . قال عمر : أىّ عمل ؟ قال : لعمل !! فقال عمر : رجل غنى يعمل الحسنات ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله كلها !!

ويكشف صاحب تفسير المنار عن وجه الشبه فى هذاالمثل فيقول[1] :
« أما وجه التمثيل فقد خصوه بالمرائى ، وقالوا إن المعنى أنه سيكون فى يوم القيامة عند شدة الحاجة إلى ثواب نفقته التى راءى بها كذلك

---

(١) ص ٧٠ ج ٣ .

الشيخ الكبير الذى احترقت جنته التى لا معاش له سواها عند ما كثر عياله الضعفاء وعجز عن العمل ، فلا يملك من ثوابها شيئاً ، ولا يقدر أن يكسب ما يغنيه عنه . وأقول إن المثل ينطبق أيضاً على من أبطل صدقته بالمنّ والأذى ، وأنه ليس خاصاً بالآخرة ؛ فإن باذل المال للفقراء ، وفى المصالح العامة يكون له من الجاه والمكانة عند الناس ما يشبه تلك الجنة التى وصفها المثل فى رونقها ومنافعها ، ويوشك أن يذهب مال هذا المنفق وتشتد حاجته وتقصر يده حتى لا يكون له مرتزق إلا ما غرسته يده من جنته تلك ، فيحاول أن يجنى منها ، فيحول دون ذلك إعصار من المن والأذى ، أو من ظهور الرياء فيحرقها حتى تكون كالصريم لا تؤتى ثمرتها ، ولا تسر رؤيتها ؛ كذلك تكون عاقبة أهل الرياء ، وذوى المنّ والإيذاء ، ينبذهم الناس عند شدة حاجتهم إلى الناس » .

من سورة آل عمران :

مثل عيسى عند الله

والقرآن يسوق مثلا لهؤلاء الذين أنكروا إنسانية عيسى ورسالته ، متعللين بأن خلقه لم يكن وفق السنن الطبيعية ؛ فقد خلق من غير أب . ويرد الله — سبحانه — عليهم فى هذا المثل بأنه لا غرابة فى ذلك؛ فإن كان عيسى قد خلق من غير أب فإن آدم عليه السلام قد خلق من غير أب .

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون [٥٩]) .

يقول الطبرى: [١] « . . إن الله عز وجل أنزل هذه الآية احتجاجاً لنبيه صلى الله عليه وسلم على الوفد من نصارى نجران ، الذين حاجوه فى عيسى ؛ وذلك أن رهطاً من أهل نجران قدموا على محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا له : ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ فقال : من هو ؟ قالوا :

---

(١) ص ٤٦٨ من تفسيره .

عيسى ، تزعم أنه عبد الله !! فقال : هو عبد الله وروحه وكلمته .
قالوا : لا ، ولكنه هو الله ، نزل من ملكه فدخل فى جوف مريم ،
ثم خرج منها فأرانا قدرته وأمره ، فهل رأيت قط إنساناً خلق من غير أب ؟
فأنزل الله عزّ وجلّ : (إن مثل عيسى عند الله) .

وسمع بعض المشركين الذين يعبدون الملائكة هذه الآية السالفة المتضمنة ذلك المثل السالف ، فرفعوا عقيرتهم مفاخرين قائلين : نحن أصحُّ نظراً وأسلم عقيدة وأصوب اتجاهاً ومنطقاً من هؤلاء النصارى ؛ فنحن نعبد الملائكة ، أما هم فإنهم يعبدون بشراً . . فنزل قول الله تعالى فى سورة الزخرف :

(ولما ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون[1] [٥٧] وقالوا أ آلهتنا خير أم هو ، ما ضربوه لك إلا جدلاً ، بل هم قوم خصمون[2] [٥٨] ، إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً[3] لبنى إسرائيل [٥٩] ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون[٦٠]) .

---

(١) يصدون : يضجون فرحاً .
(٢) خصمون : شديدو المجادلة .
(٣) مثلا : أمراً عجيباً .

وفى تفصيل ذلك يقول الألوسى (١) : « إن المشركين لما سمعوا قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » قالوا : نحن أهدى من النصارى ؛ لأنهم عبدوا آدمياً ونحن نعبد الملائكة . . فنزلت . . فالمثل ما فى قوله تعالى : (إن مثل عيسى . .) الآية والضارب هو المولى تعالى شأنه أى : ولما بين الله سبحانه حالته العجيبة اتخذه قومك ذريعة إلى ترويج ما هم فيه من الباطل بأنه مع كونه مخلوقاً بشراً قد عبد ، فنحن أهدى ، حيث عبدنا ملائكة مطهرين مكرمين عليه . وهذا هو الذى عنوه بقولهم « أآلهتنا خير أم هو » فأبطل الله تعالى ذلك بأنه مقايسة باطل بباطل ، وأنهم فى اتخاذهم العبد المنعم عليه إلهاً مبطلون مثلكم فى اتخاذ الملائكة — وهم عباد مكرمون — ثم قال تعالى : « ولو نشاء لجعلنا منكم . . . الآية » دلالة على أن الملائكة عليهم السلام مخلوقون مثله وأنه سبحانه قادر على أعجب من خلق عيسى عليه السلام ، وأنه لا فرق فى ذلك بين المخلوق توالداً وإبداعاً . فلا يصلح القسمان للإلهية » .

---

(١) ص ٩٤ جـ ٢٥ من تفسيره روح المعانى .

إنفاق الكافرين

قد يغرى الله بعض الكافرين فيمد لهم من فضله، ويمنُّ عليهم من سيبه، ويفيء من نعمه عليهم فى الدنيا الشيء الكثير ..ويدلى الكافر الثرى بدلوه فى مشروعات الخير والإنتاج ، ويعطى من ماله ما يسميه « قربات» فيسدُّ خلة فقير ، أو يقيل عثرة محتاج ، أو يقيم منشأة، أو يشيد مؤسسة تمدُّ رواقها فتفيض بالرزق على سواد عظيم من خلق الله . . وقد يخدم الإنسانية بما يقدم إليها من مخترعات نافعة ، أو أدوية ناجعة. وهو مع ذلك مقيم على كفره سادر فى جحوده ونكرانه ، فمثل نفقته هذه كمثل ريح فيها برد شديد أصابت زرع قوم عاصين ظالمين قد أملوا إدراكه ورجوا نفعه فأهلك الريح زرعهم بسبب عصيانهم وكفرهم وتجاوزهم حدود بارئهم ومخالفتهم أمره وإشراكهم به ، وتكذيبهم لرسله :

(إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون [١١٦] مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرٌّ(١) أصابت

(١) صر : برد شديد .

حرث[1] قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ... [١١٧]) .

والمراد من هذا المثل – كما يقول العلامة أبو السعود فى تفسيره[2] : « المراد هو تشبيه ما أنفقوا فى ضياعه وذهابه بالكلية من غير أن يعود إليهم نفعٌ ما بحرث كفار ضربته صرٌ فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعةٌ ما بوجه من الوجوه » .

---

(١) حرث : زرع .
(٢) ص ٤٠٤ جـ ١ .

من سورة الأعراف :

المكذّب بآيات الله

وهناك نمط من الكفر ، صاحبه عالم بآيات الله ، عارف مدلولاتها ، قادر على تبيانها بما أوتى من بلاغة فى المنطق وبراعة فى النطق وقوة فى الحجة والإقناع . . . إلا أنه انحرف فلم يعمل بمقتضى علمه ، وكفر بآيات ربه عندما انسلخ منها ولم يعمل بمفهومها ، وعندما جحد نعمة العلم وأذهبها بعدم العمل ، فلا بدع أن ضعفت نفسيته ولم تصمد أمام الغزو الشيطانى ، وصار من الفاسدين المفسدين . ولو اختار لنفسه الرفعة والكمال الإيمانى لرفعه الله بتلك الآيات إلى درجات من الطاعة والهداية ، ولكنه أعرض ونأى وركن إلى الأرض بميله إلى الأمور الأرضية الوضيعة ؛ لذا لم يوجهه الله إلى الحياة العلوية ، حياة التطبيق العملى المثالى لما علم وعرف ؛ حياة الروح التى سداها نور وضياء ولحمتها إشراق وصفاء ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .

يقول صاحب تفسير المنار: «[1] .. واللهث : التنفس الشديد مع إخراج اللسان . ويكون لغير الكلب من شدة التعب والإعياء أو العطش . وأما الكلب فيلهث فى كل حال ، سواء أصابه ذلك أم لا ، وسواء حملت عليه تهدده بالضرب أم تركته آمناً وادعاً . وهذا الرجل صفته كصفة الكلب فى حالته هذه ، وهى أخس أحواله وأقبحها . والمراد أنه كان من إخلاده إلى الأرض واتباع هواه فى أسوأ حال ، خلافاً لما كان يبغى من نعمة العيش وراحة البال ؛ فهو فى همّ دائم مما شأنه أن يهتم به وما شأنه أن لا يهتم به من صغائر الأمور ، وخسائس الشهوات ، كدأب عباد الأهواء وصغار الهمم : تراهم كاللاهث من الإعياء والتعب وإن كان ما يعنون به ويحملون همه حقيراً لا يتعب ولا يعيي ، ولا ترى أحداً منهم راضياً بما أصابه من شهواته وأهوائه ، بل يزيد طمعاً وتعباً كلما أصاب منعة وقضى أرباً :

فما قضى أحد منها لبانته ولا انتهى أرب إلا إلى أرب

ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا : ذلك الأمر البعيد الشأو فى الغرابة هو مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من الجاحدين المستكبرين والمقلدين الجاهلين ، كذّبوا ؛ لظنهم أن الإيمان بها يسلبهم ما يفخرون

---

(١) ص ٤٠٧ جـ ٩ .

به من العزّة والعظمة باتباعهم لغيرهم ، ويحط من قدر آبائهم وأجدادهم الذين قلدوهم فى ضلالهم ، ويحول دون تمتعهم بما يشتّهون من لذاتهم ؛ فلهذا الظن الباطل لم ينظروا فى الآيات نظر تفكر واستقلال وتبصرّ واستدلال ، بل نظروا إليها — لا فيها — من جهة واحدة : وهى أن اتباعها يحط من أقدارهم ، ويعد اعترافاً بضلال سلفهم الذين يفخرون بهم ويحرمهم التمتع بحظوظهم وأهوائهم .

فكان مثلهم مثل الذى أوتى الآيات فانسلخ منها ، وذلك لا يعيب الآيات وإنما يعيب أهل الأهواء الذين حرمهم سوء اختيارهم الانتفاع بها ، وكأين من إنسان حرم الانتفاع بمواهبه الفطرية بعدم استعماله إياها فيما يرفعه درجات فى العلم والعمل !! وكأين من إنسان استعمل حواسه فى الضرّ وعقله وذكاءه فى الشر !! وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . فاقصص القصص لعلهم يتفكرون : اقصص أيها الرسول قصص ذلك الرجل ، المشابهة حاله لحال هؤلاء المكذبين بما جئت به من الآيات البينات فى مبدأ أمره وغايته ومعناه وصورته ، رجاء أن يتفكروا فيه فيحملهم سوء حالهم وقبح مثلهم على التفكر والتأمل ، فإذا هم تفكروا فى ذلك تفكروا فى المخرج منه ، ونظروا فى الآيات وما فيها من البينات بعين العقل والبصيرة لا بعين الهوى والعداوة . ولا طريق لهدايتهم غير هذه .

والآية تدل على تعظيم شأن ضرب الأمثال فى تأثير الكلام ، وكونه

أقوى من سوق الدلائل والحجج المجردة » .

ساء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فى الأمثال ، وقبحت صفتهم فى الصفات ، وما كانوا بما اختاروه لأنفسهم من الإعراض عن التفكر فى الآيات ، ومن النظر إليها نظر العدو الشانئ يظلمون أحداً ، وإنما يظلمون أنفسهم وحدها بحرمانها من الاهتداء بها ، وبما يعقب ذلك من حرمان سعادة الدنيا والآخرة »

وعن هذا كله تحدثت الآيات التالية من سورة الأعراف فقالت :

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ[1] منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين [١٧٥] ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد[2] إلى الأرض ، واتّبع هواه . فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذّبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون [١٧٦] ساء مثلاً القوم الذين كذّبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون [١٧٧] .)

ثم تمضى هذه الآيات كاشفة حال أهل النار ومآلهم فتقول :

---

(١) انسلخ : خرج .
(٢) أخلد إلى الأرض : مال إليها .

ولقد ذرأنا(١) لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون [١٧٩] :

تقرر هذه الآيات الشريفة أن الله سبحانه خلق كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها شيئاً من أمر الآخرة ، فهم (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) ولهم أعين لا يبصرون بها طرق الهداية ، ولهم آذان صرفوها عن سماع الحق سماع تدبر وتفكر (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ؛ إذ كانوا يجحدون بآيات الله) .

فلا جرم أن خلقهم الله وقوداً للنار وحطباً لجهنم ، وشبههم بالأنعام (وهى البهائم التى لا تفقه ما يقال لها ولا تفهم ما أبصرته لما يصلح ، ولما لا يصلح ولا تعقل بقلوبها الخير من الشر فتميز بينهما ، فشبههم الله بها ؛ إذ كانوا لا يتذكرون ما يرون بأبصارهم من حججه ولا يتفكرون فيما يسمعون من آى كتابه) (٢) (فهل كالأنعام فى كونهم لا حظ لهم من عقولهم ومشاعرهم إلا استعمالها فيما يتعلق بمعيشتهم فى هذه الحياة الدنيا ،

---

(١) ذرأنا : خلقنا .

(٢) ص ٢٨٠ من تفسير الطبرى ج ١٣ .

بل هم أضل سبيلا من الأنعام ؛ لأن هذه لا تجنى على أنفسها بتجاوز سنن الفطرة وحدود الحاجة الطبيعية فى أكلها وشربها ونزواتها ، بل تقف فيه عند قدر الحاجة التى تحفظ بها الحياة الشخصية والنوعية .

وأما عبيد الشهوات من الناس فهم يسرفون فى كل ذلك إسرافاً يتولد منه أمراض كثيرة يقل فيهم من يسلم منها كلها [١]

وكذلك يتحدث القرآن عنهم فى موضع آخر فى سورة المدثر فيقول : « فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة »[٢].

ويتحدث صاحب كتاب « من بلاغة القرآن [٣] » عن دقة ذلك التصوير القرآنى فيقول : « ربما بدا أنه يكفى فى تصوير إعراضهم وصفهم بأنهم كالحمير ، ولكنه فى دقته لا يكتفى بذلك ، فهو يريد أن يصوّر نفرتهم من الدعوة وإسراعهم فى إبعاد أنفسهم عنها إسراعاً يمضون فيه على غير هدى فوصف الحمر بأنها مستنفرة تحمل نفسها على الهرب ، وتحثها عليه ، يزيد فى هربها وفرارها أسد هصور يجرى خلفها ؛ فهى تتفرّق فى كل مكان ، وتجرى غير مهتدية فى جريها ، أوَ لا ترى فى

---

(١) ص ٤٣٨ جـ ٩ من تفسير المنار .

(٢) آية ٤٩–٥١ المدثر .

(٣) ص ١٩٩ من كتاب « من بلاغة القرآن » الدكتور أحمد بدوى .

صورة هذه الحمر وهى تجد فى هربها لا تلوى على شىء تبغى الفرار من أسد يجرى وراءها ما ينقل إليك صورة هؤلاء القوم معرضين عن التذكرة ، فارين أمام الدعوة لا يلوون على شىء سائرين على غير هدى، ثم ألا تبعث فيك هذه الصورة الهزء بهم والسخرية ؟ » .

من سورة يونس :

الحياة الدنيا

تتفتح أعين الأناسىّ الصغيرة أول ما تتفتح على دنياهم المحيطة بهم، فتسحرهم وتبهرهم وتعجبهم وتطربهم بما فيها من نعيم ومتاع ، وضياء وأضواء . . .

وتسير بهم دنياهم فى كل مجال ومكان تعرض عليهم العديد من مباهجها ومفاتنها . . ويخدع أهل الدنيا عندما يرون دنياهم قد أخذت زخرفها وازينت . .

ويركنون إليها مسلمين زمامهم لها ، مغرقين أنفسهم فى أوضارها وأوحالها ، بعد أن ظنوا أنهم قادرون عليها ، متحكمون فيها بما فى جعبتهم من وسائل العلم الحديث ، وألوان التقدّم الحضارى ، وأنواع المخترعات والمكتشفات التى اختزلت المسافات ، وقرّبت البعيد وذللت العسير ، والتى جعلت مملكة الأرض تكاد تتطاول على مملكة السماء عندما غزت فضاءها ، وحاولت جاهدة أن تكشف مساتيرها وأسرارها . وسرت إلى

قلوب أهل الدنيا نشوة تقدمهم العلمى المادىّ فهزّوا أعطافهم صلفاً وكبراً وتمادوا فى غرورهم وخيلائهم ، وتخيلوا فخالوا أن دنياهم عجينة لدنة بين أصابعهم يشكلونها وفق مشيئاتهم ويكيفونها حسب رغباتهم ورغائبهم .

وسرعان ما يسقط فى أيديهم ، وتدور أعينهم فى محاجرها فزعاً وزمعاً ، وتقف قلوبهم رعباً ورهباً عندما يفجأهم القضاء ويحل بهم الفناء . ويضع العدم — على غير موعد معهم — خاتمة كل الحيوات . ويصبحون فى ضمير الغيب أثراً وذكراً ومثلا وذكرى ، كأن لم يغنوا فى دنياهم عندما عجزت بما فيها ومن فيها عن أن ترد عنهم غائلة قضاء، أو تمنع ضربة قدر أو تبعد شبح فناء أو وباء .

والقرآن فى أكثر من موضع يحذر هذه العاقبة ، وينعى على أهل الدنيا استكانتهم إليها وخدمتهم لها . وهو فى الوقت نفسه لا يحارب الدنيا محاربة دائمة مطلقة فهى فى نظره مرغوبة مطلوبة أيضاً : مرغوبة ؛ ليتخذها المرء مطية يصل بها إلى النعيم الأخروى، وسبيلا يعبره ليعمر حياته الأخرى الخالدة ، ومزرعة يبذر فيها صالح العمل وصحيح العقيدة ، وينشر فى أرجائها الهدى والسلام ؛ ليجنى فى آخرته الجزاء الخالص والخير الخالد .

فالعزوف عن الدنيا جريمة فى نظر الإسلام ؛ بدليل أن الله جلّ شأنه يقول « ولا تنس نصيبك من الدنيا » ويقول « قل من حرّم زينة

الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ويقول الحسن البصرى فى كتابه « أدب الدنيا والدين » : « إن الله جعل الدنيا دار تكليف وعمل كما جعل الآخرة دار قرار وجزاء ، فلزم كذلك أن يصرف الإنسان إلى دنياه حظاً من عنايته ؛ لأنه لا غنى عن التزوّد منها للآخرة ، ويقول الله مخاطباً نبيه عليه السلام (فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب) أى: إذا فرغت من أمور الدنيا فانصب فى عبادة ربك ، ويقول عليه السلام : "ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ، لكن خيركم من أخذ من هذه وهذه" كما قال : "نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة" » .

وقد ضرب القرآن الكريم للدنيا أكثر من مثل ، وقد رسم فى هذه الأمثلة بأسلوبه الفنى وظلاله ورسومه أكثر من لوحة تمثل قوة الدنيا الضعيفة ، وعلمها الجاهل ، وخلودها الفانى : لعل ذوى الفطر السليمة والفكر النيرة الصائبة يثوبون إلى بارئهم ويفيئون إلى ظلال الحق فيعملون لأخراهم وأولاهم ، ولدينهم ودنياهم « واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

(إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض

زخرفها وازّينت وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً[١] كأن لم تغن بالأمس[٢] ، كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكرون [٢٤]). من سورة يونس

وفى سورة الكهف مثل ثان :

(واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً[٣] تذروه[٤] الرياح وكان الله على كل شىء مقتدراً [٤٥]) .

وتسوق لنا سورة الحديد مثلا للحياة أبان الدوافع التى تغرى أهل الدنيا بالاطمئنان إلى حيواتهم ، كما بين المثل سرعة زوال الدنيا وذهابها، بعد أن شبهها بالنبات الذى ارتفع والتف وطال وتطاول حتى أعجب الزارعين والرائين ، ثم سرعان ما اصفرّ بعد نضرة وذوى بعد قوة ، ولم يلبث أن تهشم وتحطم وتهاوى وتلاشى . .

---

(١) حصيداً : محصوداً .
(٢) كأن لم يغن بالأمس : كأن لم يكن موجوداً .
(٣) هشيما : مفتتاً .
(٤) تذروه : تفرقه .

(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً[١] وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور [٢٠]).

يقول الألوسى فى تفسيره[٢]: «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور»، لمن اطمأن بها ولم يجعلها ذريعة للآخرة ومطية لنعيمها، روى عن سعيد ابن جبير «الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله تعالى وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة».

وعن بلاغة هذه الأمثلة القرآنية تحدث الدكتور أحمد بدوى فقال [٣]: «ولجأ القرآن إلى التشبيه يصور به فناء هذا العالم الذى نراه مزدهراً أمامنا، عامراً بألوان الجمال، فيخيل إلينا استمراره وخلوده، فيجد القرآن فى الزرع يرتوى من الماء فيصبح بهيجاً نضراً، يعجب رائيه، ولكنه لا يلبث أن يذبل ويصفر، ويصبح هشيماً تذروه الرياح — يجد

---

(١) حطاماً: فتاتاً.
(٢) ج ٢٧ ص ١٨٥ روح المعانى.
(٣) ص ٢٠٩ من كتاب من بلاغة القرآن.

القرآن فى ذلك شبهاً لهذه الحياة الدنيا ، ولقد أوجز القرآن مرّة فى هذا التشبيه وأطنب أخرى ؛ ليستقر معناه فى النفس ، ويحدث أثره فى القلب . فقال مرة : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدراً ».

وقال مرة أخرى : «إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً، ثم يكون حطاماً » وقال مرة ثالثة : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .

ويقول الفيلسوف العلامة محمد فريد وجدى فى كتابه « مقدمة المصحف المفسّر » تحت عنوان « الدنيا فى نظر القرآن » : « ما من فيلسوف أو شاعر أو متأمل فى الوجود إلا وحقر الدنيا واشتكى منها ؛ لتوالى آفاتها وتتابع حسراتها ، فلا لذة فيها إلا وهى مشوبة بألم ، ولا راحة إلا وهى مصحوبة بتعب . ، فلم تصفُ لملك ولا عالم ولا جاهل . ولكن الناس مالكهم ومملوكهم وعالمهم وجاهلهم ومؤمنهم وكافرهم وإن اتحدوا فى

هذا الذم إلا أن طرائقهم فيها على غاية التناقض ؛ اتحدوا كلهم فى المقدمة واختلفوا فى النتيجة ، فنهم المتكالبون عليها ، المتفانون فى جمع حطامها . فكان ذلك التكالب مؤدياً إلى التقاطع والتنابذ وتعمد الشرور التى تزيد دنياهم نقصاً ، وحياتهم تنغيصاً . وهو حال شديد التناقض ، الواقعون فيه أشد الناس قدحاً لأنفسهم وعجباً من حالهم . ومن الناس من عرف للدنيا هذه الحال ، فانقطع عنها ونبذها ولم يعبأ منها إلا بما يسد الخلة ويقم الأود . ولكن إذا كان القسم الأول شديد التناقض ، فالثانى مفرط لا يلبث أن يقع تحت سيطرة القسم الأول ؛ لأن الدنيا لمن غلب ، ولا غلب إلا بمادة . . .

جاء الإسلام والناس على هذين المبدأين ، فأتى للأولين من أنواع العبر بما يقتلع حب الدنيا من أنفس المتهورين فى حبها ، ويريهم حقارتها ونقصها بمثل قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح » .

أتى سبحانه وتعالى بمثل هذه الآيات ، ولكنه شفعها بما يجب على الحى أن يعمله فى دنياه من سعى وراء الحصول على المادة ، حتى لا يقع أهل

هذا الدين تحت أسر الأمم المادية ، فقال تعالى : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » وسمى المال خيراً ما دام المقصود منه طلب الحق فقال تعالى : « فإن ترك خيراً الوصية » وسماه فضلا فقال تعالى : « فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » . والمال لم يكن خيراً وفضلا من الله إلا لأنه مكتسب من حلّ ، لا مأخوذ بقطع رحم ، ولا بمنافسة تجرّ إلى خراب .

بهذه الحكمة العالية أشرب القرآن نفوس أهله خصلتين ساميتين : أولاهما ، ترك الدنيا لعشاقها ، وثانيّهما : أخذ ما يقيمون به أود حياتهم منها ، ويحميهم من الوقوع فى أسر عبادها .

ولا نرى ديناً من الأديان حل هذه المسألة على هذا النحو . وقد أيد المسلمون هذه الحال فظهر على حركاتهم وسكناتهم ، وأسسوا على قاعدته مدينة فاضلة قامت على أعدل صرط الفضيلة حتّى قال الله فيهم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

من سورة هود :

المكذّبون والمصدّقون

الأعمى لا يبصر الطريق . .

والأصم لا يسمع الدعاء ، ولا يعى النداء . . يضل من قدميه الطريق ، فيتيه فى مهمه ويسير فى شعاب ومسارب تبعد به عن الهدف المرجوّ والغرض الأسمى . .

وفاقد البصر إذا حرم القائد الملهم والموجه المستنير والمرشد الهادى الأمين تنكب الجادّة ، وحاد عن السبيل .

كذلك الكافر الذى نضا عنه ثوب الإيمان ، وأزال عن عاتقه تحمل التكاليف الشرعية الحقة ، والذى آثر الغواية والضلال ، فأصمّ أذنيه عن سماع دعوة الله ، وابتعد بقلبه عن نور الله ؛ فلم يبصر الحق . فمثله كمثل الأعمى . . . الأصم !!

أما المؤمن الذى أشرب قلبه حبّ الله ، وتحمل تعاليم مولاه ، ونشط لها وانفعل بها وعاشها ، منفذاً الأوامر مجتنباً النواهى . . ولم يكن سامعاً

فحسب ، بل بالغ فى سمعه . . وبالغ فى بصره ؛ حتى أبصر المحجة واضحة والمعالم منيرة ، فسار فيها يحفه نور من ربه ، وتوجهه هداية مولاه نحو الحق ، والله هو الحق المبين . .

وهذا المؤمن مثله ، فى تحريه الصواب وسماعه داعى السماء ، مثل السميع البصير . . وما كان للسميع البصير أن يتساوى بالأعمى الأصم..!!

فشتان بين الفريقين . . شتان بين الموت والحياة . . والنور والظلمة . . والكفر والإيمان « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » كمن هو سادر فى غيه وعمايته ! « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة » كمن هو آمن لا يعتريه مكروه يومئذ ولا يحتاج إلى تقية ؟ «أم من هو قانت آناء الليل ساجداً أو قائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » كاللاهى اللاديني المستهتر المارق ؟

« أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » « قل هل يستوى الذى يعلمون والذين لا يعلمون » ؟ .

ويقول الله سبحانه فى سورة هود ممثلا حالتى المكذبين والمؤمنين مقرراً عدم تساويهما ، موجباً الخسارة يوم الدين للعصاة الظالمين ، والخلود فى النعيم لصالح المؤمنين :

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين[١٨] الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون [١٩] أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون [٢٠] أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون[٢١] لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون [٢٢] أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون [٢٣] مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلاً ؟ أفلا تذكرون [٢٤]) .

ثم ضرب الله مثلا للمشرك : فشبهه بالعبد يتولى أمره شركاء متشاكسون لكل منهم رغبة تخالف رغبة الآخر ، واتجاه يتعارض مع اتجاه الآخرين ؛ فلا غرو أن توزّع قلب العبد وتشتتت نفسه فى التوفيق بين هاتيك الرغبات المتباينة ..

وضرب مثلا للمؤمن الموحد بالرجل الذى لا يلى أمره إلا شخص واحد

فحسب . . لا شركاء . . ولا شركة . . ولا مشاحنة ولا مشاكسة ، ولا أغراض متباينة أو أهواء متعددة . لا يخضع إلا لواحد فلا تحير ولا اضطراب ولا بلبلة ولا قلق .

(ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون[١] ورجلاً سلماً[٢] لرجل هل يستويان مثلاً ، الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون [٢٩])[٣] .

. والعبد مسلوب الإرادة والحرية ، مشلول التصرّف والملكية ، معطل القوى ، تابع خاضع لسيده ، كسقط المتاع لا حول له ولا طول . ذلك العبد المملوك الرقيق لا يتساوى بالحر ولا يقارن بكامل الأهلية طليق التصرف فيما منحه ربه من رزق حسن ، وما أغدق عليه من خير .

وكذلك الكافر الذى عطل تفكيره فسيرته أهواء أوليائه .. والذى خضع لمعتقداته الفاسدة البالية ولتقاليده العفنة الموروثة فختمت على إرادته وطبعت على عقليته ، و رانت على قلبه فوجهته وفق هواها وأهوائها .

ذلك الكافر لا يتساوى بالمؤمن المفكر القوى بنصر الله ، الغنى بعقيدته

---

(١) متشاكسون : مختلفون .
(٢) سلما : خالصاً .
(٣) من سورة الزمر .

الصحيحة ، وبما أنعم الله عليه من خير وبر ، وبما أفاءَ علية من رزق وثراء .

والأبكم الأخرس الذى ماتت فيه حاسة السمع والنطق ، وتعطلت قواه العقلية فغدا مبتور المنفعة ضيق العطن ضحل التفكير ،وأصبح عالة على وليّ أمره أينما يوجهه لا يأتى بخير ؛ فهو عديم النفع ، ضائع النجح.

لا يستوى ذلك الفاشل المخفق برجل كامل العقلية ذى فهم ناضج وإدراك سليم ، وكفاية وعدالة واستقامة .

فالكافر المشرك كالعبد الأبكم الأعمى ...

والمؤمن الموحد كالحر العاقل الرشيد ..

وبين الفريقين ما بينهما من بعيد الفرق وشاسع البون .

وعن ذلك تتحدث أمثلة آيات سورة النحل التى تقول :

(ضرب الله مثلاً عبداً مملوكًا لا يقدر على شيء[١] ، ومن رزقناه منّا رزقًا حسنًا فهو ينفق منه سرًّا وجهراً، هل يستوون، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون [٧٥] وضرب الله مثلاً

---

(١) عاجز عن الكسب والتصرف .

رجلين : أحدهما أبكم[١] لا يقدر على شيء ، وهو كَلٌّ[٢] على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط[٣] مستقيم [٧٦]).

---

(١) أبكم : أخرس .
(٢) كل : عالة على غيره لا يستطيع أن يقوم بأمر نفسه .
(٣) صراط : طريق .

من سورة الرعد :

الجنّة

الناس فى حياتهم الدنيا يكافحون وينافحون ، يبغون من مسعاهم حياة أفضل وأعلى ، ومستوى أرفع وأنفع . وكذلك المؤمنون المتقون يكافحون أهواءهم وشهواتهم حتى يمكنوا فى نفوسهم لعقيدتهم . . وحتى يرضى عنهم ربهم ، ويختم بالصالح من الأعمال حياتهم ، ويوفيهم يوم الجزاء أجوزهم . مصداقاً لقول الرسول صلوات الله وتسليماته عليه : «ألم تر أن العمال يعملون ، فإذا فرغوا من أعمالهم وُفوا أجورهم ؟ »

لكل أجير أجر ، ولكل عمل جزاء من ثواب أو عتاب أو عقاب ، ولكل عبادة حقة مثوبة وحسن مآب « إن للمتقين لحسن مآب : جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب».

وهناك قلة قليلة استقلت فى جنب الله ما قدّمته من صالح العمل وخالص العبادة ، معتقدة أن ما تقدمه فى سبيل عبادة الله لا يفى ببعض أنعم الله ، فجدوا وجالدوا حتى بلغوا — بعد طول معناة ومجاهدة — درجة

الإحسان فى القول والعمل والعبادة والتقوى ، فاستنارت بصائرهم ، وخلصت قلوبهم ، وصفت أرواحم وسمت أفئدتهم وتوصلت إلى الحق ، وعبدت الله لا رغبة فى ثوابه ولا رهبة من عقابه ، وإنما عبدته لذاته ، لا لشىء إلا لشىء واحد فحسب وهو أنه الرب الحقية بالعبادة ، كما كانت تقول رابعة العدوية .

وفى الجنة نعيم عجيب . . فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ولكى يقرّب القرآن بعض متاعها لبعض النفوس التى لا تؤمن إلا بالمحسوس أبان فى كثير من آياته كثيراً من تلك الأجواء الإلهية التى يعيشها أهل الجنة : « هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون » ، « لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً » ، « ودانية عليهم ظلالها » « يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب . وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » ، « يحلون فيها من أساور من ذهب ، ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق » ، « متكئين على فرش بطائنها من إستبرق » ، « تعرف فى وجوههم نضرة النعيم » ، « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين » ، « تجرى من تحتهم الأنهار » ، « وقالوا : الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » .

أجواء مفعمة بالغبطة والرضا ، والمنافع والمتع ، ومع هذه المتع الحسية التى صورها القرآن متع أخرى معنوية من رضا نفسى وسرور برضوان

الله ، ونيل مغفرته ، وتلك لذّة روحية أسمى من النعيم المحسوس .

وإلى هذا الرضا والرضوان أشار القرآن عندما قال : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » .

نعيم كبير وفوز عظيم وملك كبير وخلود دائم تلك هى الجنة كما وصفها القرآن . وقد رسم القرآن — فى بعض سوره — صوراً محسوسة ، وصفت الجنة وأنهارها الجارية ومياهها المنسابة المتنوعة بين ماء حلو ولبن خالص وخمر شهىّ وعسل صاف .

(مثل الجنة التى وُعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن[1] وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهارٌ من خمر لذّة[2] للشاربين ، وأنهارٌ من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم [١٥]) من سورة محمد .

(مثل الجنة التى وُعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار ، أكلها[3] دائم وظلُّها ، تلك عقبى[4] الذين اتقوا وعقبى

---

(١) غير آسن : غير متغير طعمه .
(٢) لذة : لذيذة .
(٣) أكلها : ثمرها .
(٤) عقبى : عاقبة .

الكافرين النار [٣٥]) من سورة الرعد .

وبهذه الأمثلة التى قدمتها هذه الآيات يرعى القرآن الجانب الغريزى في الإنسان وهو الذى يدفعه إلى نشدان المادة والتماس اللذة .

ويرعى كذلك الجانب الروحى الذى يهيم بالمغفرة ويشغف بالرضوان .

الحق والباطل

« إن الله سبحانه وتعالى ضرب مثل الحق فى ثباته وبقائه بالماء الذى ينزل من السماء ، فتسيل به الأودية فى قدر حاجة الناس، ويمكث بعضه فى الأرض لمصلحتهم ، وبالمعادن التى ينتفع بها فى صنع الحلى والأدوات من حيث دوامها ونفعها .

وشبه الباطل فى عدم ثباته وبقائه بزبد الماء (الريم) وزبد المعادن يهيج ثم يضمحل ويتلاشى [١] » .

ومثلُ الحق والباطل تقدّمه لنا هذه الآيات من سورة الرعد :

(أنزل من السماء ماء فسالت أودية [٢] بقدرها فاحتمل السيل زبداً [٣] رابياً [٤] ، ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء أو حليةٍ أو متاع زبد مثلُه ، كذلك يضرب الله الحق والباطل؛ فأما الزبد

---

(١) ص ٨٥ من كتاب العظات الدينية فى الأمثال القرآنية والعربية .
(٢) أودية : جمع واد وهو الموضع الذى يسيل الماء فيه بكثرة .
(٣) الزبد : الفقاقيع البيضاء التى توجد عند غليان السوائل .
(٤) رابياً : عالياً .

فيذهب جفاء[١] وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال [١٧]).

ويقول الحكيم الترمذى[٢] : « . . ضرب الله مثلاً ليبين الحق من الباطل فقال : أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها . فالحق مثل الماء الذى جرى فى الأودية ، فسالت أودية بقدرها : أى اختلط الحق بالباطل ؛ لأن النفس جاءت بأباطيلها ومناها وشهواتها التى هى إلى فناء فتمنتها فاغترّ بها القلب . والحق لا يفنى ولا يبلى .

فقوله : أنزل من السماء ماءً : أى القرآن ، شبه القرآن بالماء : لأن فيه منفعة الدين من الأحكام والشرائع ، كما أن فى المطر منفعة الدنيا ،

ثم شبه القلوب بالأودية ؛ لأنه وجد النور فى القلب منفذاً ومجازاً كما وجد الماء فى هذه الأودية منفذاً ومجازاً .

ثم شبه القلوب بالسيل . وسيل الباطل بالزبد الذى يعلو فوق الماء ، فكل قلب يتفكر ولم يعتبر ولم يرغب فى الحق خذله الله تعالى ووجد الظلمة والهوى فى قلبهمنفذاً ومجازاً ، كما أن السيل وجد فى الأودية منفذاً

---

(١) جفاء : الجفاء ما يرمى به القدر من الغثاء .

(٢) ص ٩٢٣ من مخطوطته .

ومجازاً فلما خذل هذا القلب احتمل الباطل كما احتمل السيل الزبد الرابى .

وإذا وجد القلب التوفيق فتفكر واعتبر احتمل الحق كما انتفع الناس من الماء الصافى . ثم وصف الحق والباطل لصاحبهما فقال : فأما الزبد فيذهب جفاء ، يعنى : تذهب منفعته ، كذا الباطل تذهب منفعته لصاحبه فى الدنيا الآخرة .

أما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض — هو الماء الصافى — كذلك الحق : شبه الحق بالماء الصافى لأنه تبقى منفعته لصاحبه فى الدنيا والآخرة كما يبقى الماء لمن أخذه . . »

ويقول فريد وجدى — فى تفسيره : « أنزل الله من السماء ماء فسالت وديان بمقدارها الذى يعلم الله أنه يكفيها ، فاحتمل السيل زبداً طافياً على وجه الماء ، وللمعادن التى توقدون عليها فى النار طلباً لأن تصنعوا منها حلياً ومتاعاً كالأوانى زبد كزبد الماء ، فأما هذا الزبد فيذهب غير مهتم به لحقارته . .

وأما ما ينفع الناس كالماء وخلاصة المعادن فيبقى فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال ، لإيضاح الشبهات ، جعل الله تعالى مثل الباطل كمثل الزبد يتكون ثم يضمحل ، وجعل مثل الحق كمثل الماء والمعادن التى تنفع الناس وتمكث فى الأرض » .

من سورة إبراهيم :

عمل الكافر

رماد هش أسود حطام نار خبت وهمدت . .

ويوم عاصف عابس قد اكفهر وجهه وتكدر جوه . .

وريح قاصفة تدوى وتزمجر وتدمر وتدمدم . .

وتئن الريح وتئز فى ذلك اليوم العاصف ، وتثور وتفور ، وتلفح وجه الأرض فتقتلع النجم من أصوله وجذوره ، وتهز الأجسام التى تلجأ إلى حمى وملاذ ، وتقذى العيون بما تثيره من حصى وغبار وقتام . . ثم تلتف الريح حول نفسها فى قوة وعنف تعصر فريستها وتهصر عودها وتقذف بأشلائها حيث تشاء . . ثم تتطاول الريح وترتفع ، وتصفع ذرى النخيل والأشجار التى ما تلبث أن تحنى لها هاماتها استسلاماً وخضوعاً .

وما كان للرماد الهش أن يقوى على الصمود فى هذه الأجواء المتقلبة ! وماذا تجدى مقاومته — إن كانت له مقاومة — أمام قوى الرياح العاتية العارمة ؟ !

وقبل أن يـ كن الجوّ وتسكت العاصفة يتحلل الرماد وتتفتت ذراته ويصبح لا شيء فى دنيا العدم .

وأعمال الكافرين ، مهما جلت وكثرت ، كهذا الرماد الذى انعدم وتلاشى فى جوف الريح الهادرة .

وهذه اللوحة الإلهية ترسمها لنا آيات من سورة إبراهيم عندما تقول :

(مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف[1] لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد [١٨]) .

«[2] وتشبيهات القرآن تستمد عناصرها من الطبيعة ، انظر إليه تجد فى السراب ، وهو ظاهرة طبيعية يراها الناس جميعاً — فيغرهم مرآها ، ويمضون إلى السراب يظنونه ماء ، فيسعون إليه ، يريدون أن يطفئوا حرارة ظمئهم ، ولكنهم لا يلبثون أن تملأ الخيبة قلوبهم حينما يصلون إليه بعد جهد جهيد فلا يجدون شيئاً مما كانوا يؤملون . إنه يجد فى السراب صورة قوية توضح أعمال الفكرة تظن مجدية نافعة — وما هى بشيء فيقول :

---

(١) العصف : اشتداد الريح .
(٢) ص ١٩٦ من كتاب بلاغة القرآن .

« والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة (١) يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً (٢) .

« (٣) ومن النظر إلى الفكرة من عدة زوايا (نجد القرآن) حيناً ينظر إلى أعمال الكافرين من ناحية أنها لا أثر لها ولا نتيجة ، فيرد إلى الذهن حينئذ هذا الرماد الدقيق لا يقوى على البقاء أمام ريح شديدة لا تهدأ حتى تبدأ لأنها في يوم عاصف ، ألا ترى هذه الريح كفيلة بتبديد ذرات هذا الغبار شذر مذر ، أنها لا تبقى عليه ولا تذر : كذلك أعمال الكافرين ، لا تلبث أن تهب عليها ريح الكفر حتى تبددها ولا تبق عليها . وللتعبير عن ذلك جاء قوله سبحانه : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء » . .

وحيناً ينظر إليها من ناحية أنها تغر أصحابها ، فيظنونها نافعة لهم مجدية عليهم ، حتى إذا جاءوا يوم القيامة لم يجدوا شيئاً ، ألا ترى في السراب هذا الأمل المطمع ذا النهاية المؤيسة ، ولأداء هذا المعنى قال تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة : يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . »

---

(١) بقيعة : بأرض مستوية .
(٢) آية ٤٠ سورة النور .
(٣) ص ٢٠٢ من كتاب بلاغة القرآن .

وحيناً ينظر إليها من ناحية ما يلمّ بصاحبها من اضطراب وفزع عندما يجد آماله فى أعماله قد انهارت ،ألا تظلم الدنيا أمام عينيه ويتزلزل كيانه كهذا الذى اكتنفه الظلام فى بحر قد تلاطمت أمواجه ، وأطبقت ظلمة السحاب على ظلمةا لأمواج ألا يشعر هذا الرجل بمصيره اليائس وهلاكه المحتوم ، ألا يصوّر لك ذلك صورة هؤلاء الكفار عندما يجيئون إلى أعمالهم فلا يجدون لها ثواباً ولا نفعاً ، ولتصوير ذلك جاء فى قوله سبحانه : « أو كظلمات فى بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب . . ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور» .

(والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب [٣٩] أو كظلمات فى بحر لجيّ(١) يغشاه(٢) موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور [٤٠] .

---

(١) لجى : عميق .
(٢) يغشاه : يغطيه .

دعاء الكافر

الدعاء صلة روحية بين العبد وبارئه ، واتجاه إلى الربّ القادر ، واستعانة بالمولى العزيز ، وابتهال من المخلوق الضعيف إلى الخالق القويّ يرجوه المغفرة والعفو، ويطلب منه الرحمة والنصر ، ويسأله التوفيق والسداد .

ويصعد الدعاء الحارّ يحمل ضراعة المؤمن . . ويحمل فى الوقت نفسه دلائل الإيمان ودلائل العبودية ودلائل الخضوع والانقياد .

والإيمان قطب الرحى ، وركيزة الاستجابة ، ومن تعرّى عن الإيمان وكفر بالألوهية والعبودية فمن يدعو ؟ وأنى يستجاب له ؟ !

هو إن دعا فإنما يدعو صنماً لايضر ولاينفع أو حجراً لا يسمع ولا يشفع . . وإن جأر بطلب فإنما يتوجه به إلى ضعيف لا يملك من أمره شيئاً ، فضلاً عن أن يتصرف فى أمور الآخرين .

يدعو أوهاماً أو أوثاناً من دون الله ، فكيف يستجيب لدعائه الله ؟

فلا بدع أن كان دعاء الكافرين فى ضلال ، ولا عجب إذ كان عمل الكافر ضياعاً وضلالاً أن يكون دعاؤه كذلك هباءً وخسراناً .

وقد سجل الفرقان الحكيم ذلك عندما قال في سورة الرعد : « وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » .ومثلت آيات من هذه السورة الكريمة عدم جدوى دعاء الكافر عندما قالت :

(له دعوةُ الحق[1] والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط[2] كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال [١٦]) .

---

(١) له دعوة الحق : إنه وحده الذى يستحق أن يدعى .
(٢) كباسط : كماد .

الخبيث . . والطيِّب

قد تتكاثف على الحق سحب الباطل وأستاره فتحجبه إلى حين ! وقد ينوء الخير أحياناً تحت لطمات الشرّ ! ! وقد يتوارى الطيب عند سوْرة الخبيث وتطاوله ، وقد يضعف صوت الحق أو يهن بين هزيم الباطل وزمجرة الظلم وهدير الغشم ودوى الإفك . .

وتظن الأوهام أن دولة الحق قد دالت ، وسطوته قد زالت ، إلا قلة قليلة من صادقى المؤمنين تتمسك بمسكة من أمل وأثارة من رجاء تعمر قلوبهم فتثبتهم أمام الأنواء والأعاصير ويزهى الباطل بغشمه وجبروته ، ويهيج الخبيث فيعيث فى الأرض جوراً وخسراناً . . ويعتكر الأفق . . وتتلبد الغيوم . . وتتكاثف الظلمات . . ومن خلال طبقات الظلام ينبثق النور ويبزغ الضياء ويتكشف السناء ، ثم يتجمع الحق ويتكامل ويشرق بإشعاعاته على أمواج الباطل فيشل قواها ، ويوقف تيارها ويعدّل مجراها . . ويتحلل الجليد وتذوب طبقاته المتراكبة ، وتنقشع السحب وتتبدد الغيوم ويبزغ الفجر . الفجر الصادق على المؤمنين الصادقين .

هذه المعركة الأبدية بين الخبيث والطيب . . بين الشر والخير . . بين

الوهم والحقيقة . . هذه المعركة فى قوتها وإبانها ، وفى نتائجها وخواتيمها ، تصورها لنا آيات من سورة إبراهم تقول :

(ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها[1] فى السماء [٢٤] تؤتى أكلها[2] كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون [٢٥] ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت[3] من فوق الأرض ما لها من قرار[4] [٢٦] يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء [٢٧]) .

---

(١) فرعها : أعلاها .
(٢) أكلها : ثمارها .
(٣) اجتثت : قطعت .
(٤) قرار : استقرار .

نقض العهد

من الفضائل الاجتماعية التى يزرعها الإسلام فى نفوس معتنقيه فضيلة الوفاء بالعهد والحفاظ عليه ، وجعل نقضه نقيصة نعى عليها وحذر عاقبتها ، وعن الوفاء بالعهد ونقضه تسوق لنا سورة النحل هذا المثل القرآنى :

(وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها[1] ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا[2] إن الله يعلم ما تفعلون [٩١] ولا تكونوا كالتى نقضت[3] غزلها من بعد قوة[4] أنكاثا[5] تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ...) :

يقول الترمذى فى مخطوطته[6] : « مثل الذى نقض العهد كمثل الغزل

---

(١) توكيدها : تقويتها .
(٢) كفيلا : ضامناً .
(٣) نقضت : حلت .
(٤) قوة : إحكام .
(٥) أنكاثاً : طاقات وقطعاً محلولة .
(٦) ص ٩٢٧ من المجلد الثانى .

الذى نقضته تلك المرأة الحمقاء أنكاثاً : نقضاً ؛ فلا هو غزل ينتفع به ولا هو صوف ينتفع به ؛ فكذا الذى يعطى العهد ثم ينقضه لا هو وفّى بالعهد إذا أعطاه ، ولا هو ترك العهد فلم يعطه .

وضرب مثلاً آخر لناقض العهد فقال (ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً[1] بينكم) أى عهودكم بالمكر والخديعة (فتزل قدم بعد ثبوتها) يقول : إن ناقض العهد يزل فى دينه عن الطاعة ، كما تزل قدم الرجل بعد الاستقامة » .

---

(١) دخلا : مفسدة .

من سورة الكهف :

مؤمن فقير . . وكافر غنى

(واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين[١] من أعناب وحففناهما[٢] بنخل وجعلنا بينهما زرعاً [٣٢] كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا وفجرنا[٣] خلالهما نهرًا [٣٣] وكان له ثمر[٤] ، فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً[٥] [٣٤] ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال : ما أظن أن تبيد[٦] هذه أبداً [٣٥] وما أظن الساعة قائمة ولئن رُددت إلى ربى لأجدن خيراً منها مُنقلباً[٧] [٣٦] قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة[٨] ثم

---

(١) جنتين : حديقتين .
(٢) حففناهما : أحطناهما .
(٣) فجرنا : أنبعنا .
(٤) ثمر : أنواع أخرى من المال .
(٥) أعز نفرا : أقوى أعوانا .
(٦) تبيد : تفنى .
(٧) منقلباً : مرجعاً .
(٨) نطفة : ماء الرجل .

سوّاك رجلاً [٣٧] لكنا[1] هوالله ربى ولا أشرك بربى أحداً [٣٨] ولولا إذا دخلت جنتك قلت : ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترَنِ أنا أقل منك مالاً وولداً [٣٩] فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً[2] من السماء فتصبح صعيداً[3] زلقا[4] [٤٠] أو يصبح ماؤها غوراً[5] فلن تستطيع له طلباً [٤١] وأحيط بثمره[6] فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحداً [٤٢])

«[7] وهذا المثل الذى ضربه الله تعالى فى وصف حال الكافر الغنى ، وما يجرّه إليه البطر من كفران حق المنعم . وحال المؤمن الذى ملأ الإيمان والثقة بالله صدره ، فلا ينظر للمال والحطام إلا نظره للأمور المتنقلة والأعراض الزائلة المتحولة ؛ فلو منحها شكر ، ولو حرمها صبر ، وهو فى كل ذلك كبير الفؤاد عزيز النفس ، بعيد من الدنايا وارتكاب الخطايا .

وما سرده الله من تحاورهما يصوّر للإنسان بأجلى بيان كيف ينفخ

---

(١) لكنا : لكن أنا . (٢) حسباناً : صواعق .
(٣ ، ٤) صعيداً زلقاً : أرضاً ملساء لا شيء عليها .
(٥) غوراً : غائراً . ٦) أحيط بثمره : أهلكت أمواله
(٧) ص ٧٨ من كتاب العظات الدينية فى الأمثال القرآنية والنبوية .

الشيطان فى أنوف أصحاب المال ويطغيهم حتى يدهورهم فى مهاوى العدم . وكيف يعلو الإيمان بنفس صاحبه ويهبه أعظم العلم بالحياة ، وتكاليفها ، والأمور وتصاريفها ، فيجعله مؤيداً بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويجعل له حسن العاقبة فى الدارين ؛ فإن العالم لا يقوده إلا العقل والعلم . والثروة مسخّرة لهما » .

من سورة الحج :

ضعف الآلهة . . وعجز الشركاء

عن ضعف الشركاء ، ومهانة الآلهة المدّعاة ، وعجز الأصنام ، تنطق بذلك كله تلك الصورة القرآنية التى مثّلت الضعف فى أقوى صورة ، وجسّمت المهانة تجسيماً صادقاً واقعياً ، وأبرزت عجز هؤلاء الذين ادّعى المشركون أنهم آلهة قادرون يمنحون ويمنعون :

(يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً — ولو اجتمعوا له — وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعُف الطالب والمطلوب [٧٣] ما قدروا الله حقّ قدره[1] إن الله لقوىٌّ عزيز [٧٤]) .

---

(١) ما قدروا الله حق قدره : ما عرفوه حق معرفته .

من سورة النور :

نور الله

الله ينير السموات والأرض بنور وحيه السماوى وعقيدته الهادية ودينه ذى التعاليم المضيئة التى يهتدى بنورها ويسير فى ضوئها وضيائها من أراد الله له سعادة الدارين وحسن الختم .

(الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم [٣٥]).

« الله منوّر الوجود ومجليه . صفة نوره الذى يفيضه على قلب المؤمن ويبعثه له فى سويداء سرائره فيملؤه علماً وهدى كمثل مصباح فى مشكاة ، وعلى المصباح قنديل من زجاج ، وفيه زيت نقى يزيد ضوء المصباح نوراً .

فكما ينير المصباح البيت ويملؤه نوراً وظهوراً كذلك نور المؤمن يكسبه علماً وهدًى ويخرجه من الظلمات إلى النور »[١] .

ويقول الحكيم الترمذى :[٢] « . . ضرب الله هذا المثل لنوره فى قلب المؤمن ليعلمه قدره ومنزلته ، فدله بالحاضر على ما أعدّ له فى الآجل ، فنفس المؤمن مثل بيت ، وقلبه مثل قنديل ، ومعرفته مثل السراج ، وفمه مثل الباب ، ولسانه مثل المفتاح . والقنديل معلق فيه دهنها من النفس والفتيلة من الزهد وزجاجها من الرضا وعلائقها من العقل ، إذا فتح المؤمن لسانه بإقرار ما فى قلبه واستضاء المصباح من كوّته إلى عرش الله تعالى ، فكلامه نور وعمله نور وظاهره نور وباطنه نور ومدخله فى الأعمال نور ومخرجه منها نور ومصيره يوم القيامة إلى النور » ويقول الدكتور بدوى[٣] « . . ولكن نظرة إلى الآية الكريمة ترى أن النور المراد هنا هو النور الذى يغمر القلب ، ويشرق على الضمير ، فيهدى إلى سواء السبيل ، أو لا ترى أن القلب ليس فى حاجة إلى أكثر من هذا المصباح ، يلقى عليه ضوءه فيهتدى إلى الحق وأقوم السبل ، ثم ألا ترى فى اختيار هذا التشبيه إيحاءً بحالة القلب وقد لفه ظلام الشك ، فهو متردد قلق خائف ، ثم لا يلبث

---

(١) التفسير المختصر لوجدى .
(٢) ص ٩٣٧ من المجلد الثانى لمخطوطة رسائل الترمذى .
(٣) بلاغة القرآن ص ١٩٥ .

نور اليقين أن يشرق عليه ، فيجد الراحة والأمن والاستقرار ، فهو كسارى الليل يخبط فى الظلام على غير هدى ، حتّى إذا أوى إلى بيته فوجد هذا المصباح فى المشكاة وجد الأمنُ سبيله إلى قلبه واستقرت الطمأنينة فى نفسه وشعر بالسرور يغمر فؤاده .

وإذا تأملت الآية الكريمة رأيتها قد مضت تصف ضوء هذا المصباح وتتأنق فى وصفه ، بما يصوّر لك قوّته وصفاءه ، فهذا المصباح له زجاجة تكسب ضوءه قوة ، تجعله يتلألأ كأنه كوكب له بريق الدرّ ولمعانه . أما زيت هذا المصباح فمن شجرة مباركة قد أخذت من الشمس بأوفى نصيب ، فصفا لذلك زيتها حتّى ليكاد يضىء ولو لم تمسسه نار . . ألا ترى أن هذا المصباح جدير أن يبدد ظلمة الليل . ومثله جدير أن يبدد ظلام الشك ويمزّق دجى الكفر والنفاق » .

من سورة العنكبوت :

قوّة الخلق . . وقوى الخالق

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون [٤١] إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم [٤٢] وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون [٤٣]) .

يقول صاحب كتاب «من بلاغة القرآن» [١] : «وكثر فى القرآن إيضاح الأمور المعنوية بالصور المرئية المحسوسة ، تلقى عليها أشعة الضوء تغمرها ، فتصبح شديدة الأثر ، وها هو ذا يمثل وهن ما اعتمد عليه المشركون من عبادتهم غير الله ، وهذا لن يفيدهم فائدة ما ؛ فهم يعبدون ويبذلون جهداً يظنونه مثمراً وهو لا يجدى ، فوجد فى العنكبوت ذلك الحيوان الذى يتعب نفسه فى البناء ، ويبذل جهده فى التنظيم ، وهو لا يبنى سوى

---

(١) ص ١٩٣ .

أوهن البيوت وأضعفها ، فقرن تلك الصورة المحسوسة إلى الأمر المعنوى فزادته وضوحاً وتأثيراً » .

وبعد هذا المثل الإلهى مضت الآية الشريفة تقول : « وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون » : اجتمع الكفر وتكتل النفاق وقام بحملة بلبلة وتشكيك يزرع بها فى النفوس الغضّة الإيمان بذور الشرك والتردد والارتداد والنكوص .

واتخذ من ضرب الله الأمثال بالذباب والعنكبوت قوام حملته ومادة تشهيره وسلاح تفرقته وظلت أبواق الحملة تنادى بأن الله لا تصدر عنه هذه الأمثال زاعمة أنه ما كان لكلام العظيم أن يتضمن هذه الأشياء الحقيرة الصغيرة ، فهى إذن ليست من عند الله ! ! وهى بالتالى من عنديات محمد ومن افتراءاته . . ونزل قول الله : إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما ، بعوضة فما فوقها . . الله ربّ الناس وخالق الكون بما فيه وبمن فيه . . الله القادر العظيم . . ومن دلائل قدرته وسرّ عظمته أن يخلق الجرم الصغير والجسم القمىء ذا الجزئيات الدقيقة الرقيقة ، والشعيرات المرهفة الحساسة ؛ لينبئ عن قدرته وتفرده بالخلق والإيجاد والتكوين .

فردّت الآية بذلك كيد الكافرين ودفعت افتراءاتهم وغسلت من نفوس المؤمنين بوادر الريب ، وصفتها وهيأتها للقبول فقطعت بذلك على الكافرين كلّ طريق .

من سورة الفتح :

صحابة محمد

شدّة ورحمة .. ورقة وغلظة ..

شدّة وغلظة على أعداء الدين ، ورأفة ورحمة بإخوانهم المؤمنين ، هؤلاء هم صحابة محمد . .

فى الحرب أرواحهم على أكفهم ، يسبقون الموت إلى ملاقاة الأعداء .

وفى السلام حبّ وذعة ، ورقة حاشية ، ودماثة خلق ، وخشوع وخضوع ، وركوع مسجود ، وابتهال ودعاء ، وعبادة وإخلاص ، وإشراق وصفاء .

ذلك مثلهم فى التوراة ووصفهم فيها ومثلهم كذلك فى الإنجيل كزرع أثمر وأينع ، ثم قوى وغلظ ، ثم استوى واستقام حتى أعجب الخاصة من الزرّاع والعامة من الناظرين :

(محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء

بينهم ، تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم[١] فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه[٢] فآزره[٣] ، فاستغلظ[٤] فاستوى على سوقه[٥] ، يُعجب الزارع . . . [٢٩]) .

يقول المحقق الألوسى[٦] : « يعجب الزرّاع بقوّته ، وكثافته ، وغلظه ، وحسن منظره . وخصّهم الله تعالى بالذكر ؛ لأنه إذا أعجب الزرّاع ، وهم يعرفون عيوب الزرع ، فهو أحرى أن يعجب غيرهم . وهنا تمّ المثل .

وهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى للصحابة رضى الله تعالى عنهم : قلوا فى بدء الإسلام ، ثم كثروا ، واستحكموا ، فترقى أمرهم يوماً فيوماً بحيث أعجب الناس .

---

(١) سيماهم : علامتهم .
(٢) شطأه : فروعه فى الجانبين .
(٣) آزره : أعانه .
(٤) استغلظ : تحول من الدقة إلى الغلظة .
(٥) استوى على سوقه : استقام على ساقه .
(٦) ص ١٢٧ جـ ٢٦ من تفسيره « روح المعانى » .

ثم يتابع الألوسى كلامه فيقول : « وفى الكشاف : هو مثل ضربه الله تعالى لبدء ملة الإسلام وترقيه فى الزيادة إلى أن قوى واستحكم ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قام وحده ، ثم قوّاه الله تعالى بمن معه كما يقوّى الطاقةَ الأولى ما يحتف بها مما يتولد منها . وظاهره أن الزرع هو النبى صلى الله عليه وسلم ، والشطء أصحابه رضى الله تعالى عنهم ، فيكون مثلاً له عليه السلام وأصحابه ، لا لأصحابه فقط » .

من سورة الروم :

مثل من أنفسهم

فى مطلع سورة الروم تتحدث آيات عن قوّة الله وآيات قدرته، من خلق الإنسان والأرض والسموات ، وخلق الكون بما فيه وبمن فيه ، وبدء الخلق ثم إعادته .

وفى هذا دعوة للمفكرين لأن يتأملوا هذه الظواهر الكونية ؛ ليصلوا ن هذا الطريق التأملى إلى الله .

والنتيجة المنطقية لهذه المقدمات — بالنسبة للخارجين عن حظيرة الدين — كانت يجب أن تكون الإيمان بالقوىّ وقوّته ، والإذعان للقادر وقدرته . . غير أن الخارجين عن حظيرة الدين — وكثير ما هم — لم يؤمنوا بهذه النتيجة ولم يعترفوا بها وأقاموا على شركهم ! !

وكان أن تدرّج الهدى الإلهى معهم ؛ فلجأ المنطق القرآنى إلى مثل واقعى يعيشه هؤلاء الظالمون المشركون . . مثل من واقع حياتهم ، ومن ذاتيتهم ومن أنفسهم :

(ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ، هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ، فأنتم فيه سواء[1] تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ، كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون [٢٨] .

إنّ ما تملكونه لم تمنحه لكم أصنامكم ، ولا أوثانكم ، ولا الشركاء الذين اتخذتموهم من دون الله .

إنما الذى رزقكم بها هو الرزّاق القدير ، والذى منحكم إياها هو الواحد الأحد على رغم كفركم وإبائكم ، وعلى رغم شرككم ونفوركم .

هؤلاء الموالى هل يشارككم أحد فيها ؟

وهل ترضون أن يتصرف أجنبى معكم فى توجيهها ، أو القيام على شئونها ، أو التحكم فيها ؟ وهل ترضون أن يشارككم أحد من عبيدكم فى شىء من أرزاقكم وأموالكم ؟ !

إذا كنتم أنتم لا ترضون الشركة على أى وجه فيما تملكون ، فكيف تجيزونها لمالك الملك . . الواحد الأحد . . الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ؟ !

---

(١) فأنتم فيه سواء : أنتم وهم متساوون فى التصرف .

عجباً ! ! تجعلون لله الخالق الرزاق شركاءَ من عبيده ومخلوقاته وتأنفون أن يشارككم الشركاء فى عبيدكم وإمائكم وأموالكم ومواليكم؟ إن المنطق والعقل يحتّم عليكم لو كنتم تعقلون أن توحّدوا . .

وكذلك يفصّل الله الآيات لقوم يعقلون ، ويضرب الأمثلة لمن يعقلها ويتدبرها . .

من سورة يس :

قرية ظالمة ؟؟

رُسلٌ ترسل وتعزّز إلى كفرة فجرة ، ينفرون ويجادلون . . ومؤمن منهم ينصح لهم . . ويخلص فى نصحه ، ويوجههم إلى صائب العقيدة ، ويستنكر عبادة ما سوى الله . .

ثم نهاية الإيمان ، وعاقبة الإشراك .

كل هذه المشاهد تجلوها لنا تلك القصة الآتية التى ساقها ذلك المثل القرآنى :

(واضرب لهم مثلاً : أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون [١٣] إذا أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ، فقالوا : إنا إليكم مرسلون [١٤] قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون [١٥] قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون [١٦] وما علينا إلا البلاغ المبين [١٧] قالوا : إنا تطيرنا (١)

---

(١) تطيرنا : تشاءمنا .

بكم ، لئن لم تنتهوا لنرجمنكم [١] ، وليمسنكم منَّا عذاب أليم [١٨] قالوا : طائركم [٢] معكم أئن ذُكرتم [٣] ، بل أنتم قوم مسرفون [١٩] وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ، قال : يا قوم اتبعوا المرسلين [٢٠] اتَّبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون [٢١] وما لى لا أعبد الذى فطرنى [٤] وإليه ترجعون [٢٢] أتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئاً ولا يُنقذون [٢٣] إنى إذاً لفى ضلال مبين [٢٤] إنى آمنت بربكم فاسمعون [٢٥] قيل ادخل الجنة قال : يا ليت قومى يعلمون [٢٦] بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين [٢٧] وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين [٢٨] إن كانت إلا صيحة [٥] واحدة فإذا هم خامدون [٢٩]) .

والإيمان بحرصه على الصلاح ، وسعيه فى الهداية والإصلاح ، ودعوته

---

(١) لنرجمنكم : لنقتلنكم رمياً بالحجارة .
(٢) طائركم : شؤمكم .
(٣) أئن ذكرتم : أئن ذكرناكم بالله ورسالة رسله تؤذوننا .
(٤) فطرنى : خلقنى .
(٥) صيحة : صرخة .

إلى العقيدة الصحيحة ، ومنطقه فى التدليل عليها ، واستنكاره الضلالات والأوهام وثباته على خالص المبادئ واستشهاده فى سبيلها وحسن خاتمته وموفور جزائه كل ذلك تمثله شخصية ذلك الرجل المؤمن الذى تحدثت عنه آيات هذا المثل .

والكفر بلجاجته وعناده وإصراره وتكذيبه ، وتطاوله وتهديده ، وتعطشه إلى الدماء ، واغتياله أرواح الهداة ، وسرعة انتقام الله منه وأخذه أخذ عزيز مقتدر . .

والرسل بهديهم ووحيهم وجهادهم ومنطقهم .

كل هذه المشاهد عرضها علينا ذلك المثل الإلهى داعياً رسول الإسلام محمداً عليه الصلاة والسلام ، وداعياً كل شخصية إسلامية محمدية أن تذكر بهذا المثل وبما يحمل من هدى جليل وتوجيه جميل وتبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

من سورة النحل :

نهاية الكفر . . ومصير التكذيب

قرية من قرى الأولين تنام على دعة ، وتستيقظ على أمن ، وتعيش فى رغد ورفاهية ونعمة ونعيم .

جاءها منذر من أهلها ، وهاد من أنفسهم، وموجه من جلدتهم . . دعاهم إلى شكر المنعم بعبادته وتوحيده ، فأعرضوا عن الدعوة ، وكفروا بالرسول المرسل وبالمنعم المرسل !

ومن يسر فى طريق الكفر فلن يصل فى النهاية إلا إلى الهاوية ، ولن يسلمه الطريق إلا إلى سوء المصير ! !

(وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً[1] من كل مكان ، فكفرت بأنعم[2] الله، فأذاقها الله لباس[3] الجوع والخوف بما كانوا يصنعون [١١٢]) .

---

(١) رغداً : واسعاً .
(٢) أنعم الله : نعمه .
(٣) لباس : آلام .

ينبثق من هذا المثل إنذار يشير إلى سوء المنقلب وتعاسة المرجع والعاقبة لا لقرية بعينها ، ولا لفرد بذاته ، بل لجميع الأفراد والجماعات والدول والمجتمعات إن كفرت وتولت .. وأعرضت وعارضت وحاربت داعى الله ذهبت ريحها ونكصت على عقبها وحلت بها النقمة محل النعمة .

يقول الزمخشرى : (١) « .. إن الله جعل القرية التى هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم ، فأبطرتهم النعمة ، فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته ، أو يجوز أن تكون قرية من قرى الأولين كانت هذه حالها فضربها الله مثلا لمكة ، إنذاراً من مثل عاقبتها » .

---

(١) فى تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٧٧ .

من سورة الجمعة :

مثل اليهود

اليهود ، كلفهم المولى العمل بالتوراة لتضمنها عقيدة الله وشريعته ، فلم يعملوا بها ،ولم يقدروها حق قدرها ، ولم ينتفعوا بما تضمنته من عقيدة وشريعة ؛ فمثلهم كمثل الحمار يحمل فوق ظهره كتباً قيمة وأسفاراً نافعة يستفيد بها الغير ، وهو جاهل بما يحمل لا يستفيد منه ولا ينتفع به .

(مثل الذين حُملوا[1] التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً[2] بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين [٥]).

« ومن خصائص التشبيه القرآنى دقته ؛ فهو يصف ويقيد ، حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة أخاذة ، وخذ مثلاً لذلك قوله تعالى : (مثل

---

(١) حملوا التوراة : كلفوا العمل بها .

(٢) أسفاراً : كتباً .

الذين حملوا التوراة ، ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً . .) فقد يتراءى أنه يكفى فى التشبيه أن يقال : مثلهم كمثل الحمار الذى لا يعقل ؛ ولكن الصورة تزداد قوّة والتصاقاً والتحاماً حين يقرن بين هؤلاء وقد حملوا التوراة فلم ينتفعوا بما فيها ، وبين الحمار يحمل أسفار العلم ولا يدرى مما ضمته شيئاً ، فتمام الصورتين يأتى من هذا القيد الذى جعل الصلة بينهما قوية[1] » .

---

(١) ص ١٩٩ من كتاب من بلاغة القرآن .

من سورة التحريم :

المسئولية الفردية

« يا فاطمة بنت محمد ، لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

بهذا التحذير المحمدى لأقرب المقربين إليه ، لفلذة كبده فاطمة ، يقرر رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام مبدأ من أهم المبادئ الإسلامية ، وأساساً من أسس العقيدة الإلهية (كل امرئ بما كسب رهين) لا يغنى أحد عن أحد شيئاً ، لا معول إلا على العقيدة الشخصية ولا اعتماد إلا على السلوك الفردى ، لا محاباة ، ولا محسوبية ، ولا استثناء .

خائن العقيدة له ميقات لا تنفعه فيه قرابة ، ولا تشفع له صلة ، ولا يجديه نسب ولا تغنى عنه صلات قرباه لأقرب الأشخاص إليه ، ولو كان رسولا من عند الله (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) .

كلُّ فرد مسئول عن ذاتيته وعقيدته وسلوكه الفردى ، وهذا المبدأ الإسلامى قد قرره القرآن بادئ ذى بدء عندما عرض لنا شرائح للإيمان الذى نبت وسط أشواك الكفر وحسك الشرك ، وشرائح للكفر الذى وُلد

فى محيط العقيدة السليمة الصحيحة .

فامرأة نوح خانت زوجها الرسول الصالح خيانة عقيدة لا خيانة فحشاء وظاهرت أعداءه وناصرت شانئيه وأسهمت مع خصومه فى السخرية والاستهزاء به . وامرأة لوط كانت تدلّ قوم لوط على ضيوف لوط وهى تعلم صنيعهم مع هؤلاء الضيوف !

لم تشفع هذه الآصرة التى تربط كلّ واحدة من هاتين المرأتين بزوجها فكان مسيرهما إلى النار . . ومصيرهما أسوأ مصير ، فلا شفاعة ولا استثناء فى شأن الكفر والإيمان .

وامرأة فرعون التى فرّت إلى ربها . وهى تتقلب فى أعطاف النعيم الحسىّ — لم تعشُ ناظريها أبهة الملك ومظاهر العظمة وألوان الترف الذى أعدّ لها وأضفى عليها باعتبارها المرأة الأولى فى المملكة الفرعونية .

نبذت ذلك كله ، وطرحته وراءها ظهريا . وولت وجهها شطر السماء تسأل من فى السماء أن ينجيها من فرعون وعمله ومن شره وأشره ومن عقيدته وحاشيته .

ومريم ابنة عمران البتول الطاهرة ، المحصنة . العفيفة الشريفة التى حافظت على طهارتها فى البيئة الفاجرة . وحافظت على إيمانها فى البيئة الكافرة ، فصدّقت بربها وكلماته وكتبه .

وكانت من أجل ذلك قانتة عابدة متبتلة شاكرة فى ذاك الوقت الذى عزّ فيه العابد الشاكر .

آسيا امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران نموذجان للمرأة المؤمنة المتطهرة القانتة يقدمهما الهدى الإلهى لزوجات النبى ، وللنساء فى كل جيل ليتحملن التبعة ، التى لا يعفيهن منها أنهن زوجات نبى أو صالح من المسلمين .

عن هذه الزوايا المظلمة والمضيئة . . وعن هذه المسئولية الفردية وعن هذا الإيمان الذى لم تزعزعه ريح الكفر تحدثنا هذه الآيات الموحية .

(ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح ، وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين [١٠] وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربّ ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين [١١] ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين [١٢]).

الأمثال فى ظلال اللغة

الأمثال :

جمع مثل ، والمثل : قول فى شيء يشبه قولاً فى شيء آخر بينهما مشابهة ؛ ليبين أحدهما الآخر ويصوّره .

وقال المبرّد : المثل مأخوذ من المثال ، وهو : قول سائر يشبه به حال الثانى بالأول . والأصل فيه التشبيه .

وقد يطلق المثل ويراد به الصفة الموضحة الكاشفة عن الحقيقة أو الحالة ، كقوله تعالى : (مثل الجنة التى وعد المتقون أى صفتها وقوله (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء) أى صفة السوء .

وقد يراد به النظير ، كما فى قوله تعالى فى سورة يس : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه) أى ضرب لنا ذلك المنكر نظيراً من الخلق قاس قدرتنا على قدرته .

وقد يراد به العظة والعبرة كقوله تعالى : (فلما آسفونا انتقمنا منهم فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين) .

وقد يراد به الأمر العجيب ، كقوله سبحانه فى شأن عيسى عليه السلام :

(إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ، وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل) . .

أما الند فإنه يقال فيما يشارك فى الجوهر فقط .

وأما الشبه فإنه يقال فيما يشارك فى الكيفية فقط .

وأما المساوى فإنه يقال فيما يشارك فى الكمية فقط .

وأما الشكل فإنه يقال فيما يشارك فى القدر والمساحة فقط

والمثل : عام فى جميع ذلك .

ومن دقائق التعابير القرآنية أن القرآن حينما أراد نفى التشبيه عن المولى سبحانه من كل وجه قال : (ليس كمثله شىء) فالتعبير بمثل أعم وأشمل لكل معانى المشاركة .

الله المثل الأعلى

الصفات المحمودة كلها تسند لله ، ولا يجوز أن نصفه بصفة مما يوصف بها البشر إلا بما وصف به نفسه .

وقد صوّر القرآن الله المثل الأعلى فى جميع صفات الجمال والجلال والكمال ، فهو الله الخالق البارئ المصوّر له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، الأول والآخر والظاهر والباطن والصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، السميع الخبير ، على كل شىء قدير غفور رحيم ، حىّ قيوم ، واسع عليم ، بصير بالعباد يحب المحسنين والصابرين لا يحب الظالمين يمحق الكافرين، غنى حميد ، واحد قهار نور السموات والأرض قوى خالق شديد ، على كل شىء شهيد عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم سريع الحساب غنى عن العالمين ، عليم بذات الصدور بكل شىء محيط علىّ كبير شاكر حليم ليس بظلام للعبيد . . إلخ .

ومن كانت هذه الصفات المثالية صفاته فلا يجوز أن نصفه بغيرها .

لذا نهى الله سبحانه عن أن نضرب له الأمثال ، فقال « فلا تضربوا لله الأمثال » هو يضرب لنفسه الأمثال ، ولا يجوز لنا أن نقتدى به ؛ لأنه يعلم ، ونحن لا نعلم .

يقول ابن قتيبة فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » [١] « فلا تضربوا لله الأمثال : فلا تصفوه بصفات غيره ، ولا تشبهوه به » .

والطبرى يقول : « فلا تمثلوا لله الأمثال ولا تشبهوا له الأشباه ؛ فإنه لا مثيل له ولا شبيه » تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا .

وقال الإمام محمد بن على الترمذى [٢] : « إن ضرب الأمثال لمن غاب عن الأشياء وخفيت عليه الأشياء ». فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال ؛ إذ قد خفيت عليهم الأشياء ، فضرب الله لهم مثلاً من عند أنفسهم لا من عند نفسه ؛ ليدركوا ما غاب عنهم .

فأما من لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء فلا يحتاج إلى

---

(١) ص ٣٧٩ .
(٢) ص ٩٣٠ من مخطوطة .

الأمثال ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فلا جرم ، ما ضرب الأمثال من نفسه لنفسه ، وكيف ، ولا مثل له ، ولا شبيه له ، فلذلك قال جل ذكره (فلا تضربوا لله الأمثال) .

فالأمثال نموذجات الحكمة لما غاب عن الأسماع والأبصار ، لتهدى النفوس بما أدركت عياناً . فمن تدبير الله لعباده أن ضرب لهم الأمثال من أنفسهم لحاجتهم إليها ، ليعقلوا بها فيدركوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة . فمن عقل الأمثال سمّاه الله تعالى فى كتابه عالماً لقوله تعالى :

(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) .

وبعد . . .

فهذه هى الأمثال القرآنية بهديها ووحيها ، وبمنهجها وهدفها ، عرضتها ما وسعنى الجهد فى هذا الكتاب .

ولعلى أكون بما قمت قد وفقت فى إبرازها أو إبراز جانب منها ملأ فراغاً كان شاغراً فى المكتبة القرآنية . .

محمود بن الشريف

مراجع البحث ومصادره

تفسير أبى السعود :
« الطبرى
« روح المعانى — لمحمود الألوسى
التفسير المختصر — لمحمد فريد وجدى
تفسير المنار — للأستاذ الإمام محمد عبده
مقدمة المصحف المفسر — لمحمد فريد وجدى
أدب الدنيا والدين — للحسن البصرى
رسائل الحكيم الترمذى — (مخطوطة فى مجلدين)
العظات الدينية — لعلى فكرى
من بلاغة القرآن — للدكتور أحمد بدوى

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

دار المعارف بمصر

تقدم للقارئ العربى هذه المجموعة النفيسة من الكتب الإسلامية :

الكتاب		الثمن
المصحف الشريف		الثمن ٥٠ قرشاً
الوعد الحق — للدكتور طه حسين		الثمن ٢٥ قرشاً
مرآة الإسلام — للدكتور طه حسين		الثمن ٣٠ قرشاً
على هامش السيرة — للدكتور طه حسين	الجزء الأول	الثمن ٣٢ قرشاً
	الجزء الثانى	الثمن ٢٨ قرشاً
	الجزء الثالث	الثمن ٣٢ قرشاً
تفسير القرآن الكريم — (للأساتذة حمزة وعلوان وبرانق) ٣٠ جزءاً		ثمن الجزء ١٥ قرشاً
التفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن — للأستاذ حنفى أحمد		الثمن ٨٥ قرشاً
التفسير البيانى للقرآن الكريم — للدكتورة بنت الشاطىء		الثمن ٣٥ قرشاً
الديمقراطية فى الإسلام — للأستاذ عباس محمود العقاد		الثمن ٣٠ قرشاً
صورة من حياة الرسول — للأستاذ أمين دويدار		الثمن ١٢٠ قرشاً

ومن سلسلة اقرأ :

عبقرية الإمام — للأستاذ عباس محمود العقاد

الصديقة بنت الصديق — للأستاذ عباس محمود العقاد

الإسلام فى السودان — للأستاذ محجوب زيادة

٥ قروش ج . ع . م . — ١٠٠ مليم فى ليبيا — ١,٥٠ ديناراً فى الجزائر

٦٠ ق . ل — ٧٥ فلساً فى العراق والأردن — ١٥٠ فرنكاً فى المغرب

٧٥ ق . س — ١٢٠ فلساً فى الكويت — ١ ريالا سعودياً

